زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: خذي بقلبي إلى النور
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي: عبدالله تحسين علي
مقدمة: شروق المسالخي

**الطبعة الأولى 2018 م**

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7423
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

# خذي بقلبي إلى النور

زهير أبو سعد

# مقدمة

الكاتب : زهير أبو سعد

العنوان : خذي بقلبي إلى النور

عندما بدأت بقراءة هذه الرواية شعرت أن الكلمات هي التي بدأت بي هزت أركان فطرة الأمومة لدي، إن الكاتب زهير دائماً يتعمد أن يستفز لبك ومشاعرك قبل فكرك. فيها أمومة تدغدغ العزباء، وتعيد الأمهات إلى الذكريات مع مولودها، وتهدي أوجاعها لعاقر، رواية جرفها غيث الوجع إلى أرض غير قابلة للنسيان، أرض نبتت فيها ذاكرة صلبة الجذور لتثمر حروفاً وكلمات امتلأت بمشاعر حلوة المذاق ومرة في آن واحد، قضمة يغص بها القلب وأخرى تتلذذ لها حواسك. محصول من الألم سرق من الشمس كتلة نور على شكل أنثى إنها هي : { يمة }

والدة ذلك الطفل الذي بقي حبله السري موصول بها تسعة أشهر إلى أن اقتطعه مقص المخاض، لكن أي مقص يستطيع أن يقطع شريان قلب تعلق بها إلى يوم يبعثون، لقد عاش في كنف بطنها متوسداً كبدها يلهو ويلعب ويرقص على إيقاع نبضات قلبها، فندق لا هو بسبعة نجوم ولا ألف نجمة، إنه يضاهي نجوم السماء كلها التي لا تعد ولا تحصى، أرحام النور لا تقارن بأي نور، شفافة هي { يمة } ما استطاع ذلك المولود رؤيتها على فور مجيئه لكن شعر بكمية الدفء التي بثت إليه منها، وكمية الحنان الموقودة في شعلتها، لقد أنكر هذا الطفل جميع النساء حتى الخالات والعمات، ما اعترف إلا بها ولم ينتمِ إلا إليها، إنها وطن فيها سكن آمن وسكينة الجنة لقلوب المؤمنين، هي طمأنينة روحه التي لا يهدأ صراخها إلا بين ذراعيها، طفل ولى قلبه إلى قبلة حبها وأدى كل شعائره في محراب الحنين، أرضعته حليباً صاف كروحها ما كدر بشيء، حليباً

طهوراً من جسد طاهر. مارس كل طقوس البر معها حتى جاءت فاجعة الموت ومارست معه مراسيمها، ليقف اليتم على بابه يلوح براية انتصاره عليه فأي صبر أيوبي أهداه القدر على فراقها، ليصبح اليوم يتيم متلهف لكتلة النور التي لم يعد يراها إلا في رؤياه بقلب يخشع لها وعين تدمع شوقاً لضمها وجسد بفراقها محزون، ها قد كبر الطفل وأصبح رجلاً أدى صلاة دون ركوع وسجود وداعاً يا { يمة } أربع تكبيرات فصتله عن رؤية الضوء ليترعرع في ظلمة اليتم، شاهدة كتب عليها (الشيهدة هيام أحمد الساري أبازيد) قبر حنين وملكة الياسمين أم اليتامى، دفنت في أرض حوران التي دفن فيها أئمة وأنبياء كالإمام النووي والنبي أيوب عليه السلام تحت تراب طاهر ركن النور ليضيء عتمة الموتى .

ها هو الطفل اليتيم الرجل الكاتب زهير أبو سعد يكتب عن أمه عن قطعة قلبه، يمسك بيده قلماً ذهبياً ويخرج

من جعبة فكره، ثروة أجناها من عرق رضاها وبره لها، حتى أخذت بقلبه الى النور، الى ورق أبيض كوجهها يملأه وجعاً برحيلها .

شروق المسالخي

إهداء..

إلى يُمَّة..

إلى أصدق إنسانة تعثر بها قلبي، و من بعدِ رحيلها بتُ أغرق في كوكبٍ موحلٍ بالكذب، رسالة للقدر أرفعُها إلى الله:

أن تعجل قبراً لي مجاوراً لقبرها..

يُمَّة ..

لَحنٌ سُحبَ منهُ كُل مَا هُو جَميل ..

و لكنهَا هي جَميلة بكُل طُقوسهَا السُداسية ..

نَصَاعٌ يُغَادرنَا إليهَا كُلمَا أَجهدَنا الغُروب عَلى الوَداع ، كَأَنَنَا أسرابٍ فَراشَاتٍ مُبعَثرةٍ فَوق حُطَام الحَياة ، تلكَ الفَراشَاتُ التي لم تَجد لَجَمالهَا جَمَال ، و نَحنُ رُذاذُ أَرواحٍ مُرهَقةٍ قَد أتعَبهَا البُكاءُ فَوق الجراح ..

جراح !! .. هي الجراح التي لا تَبوحُ إلا بالوَجع ، و إن بَاحت فَضَحت كُل الشُرفات المُطَلة على قُلوبٍ نضُجت تَحتَ لَهيب الشَوق ..

احذف كَلمة الشَوق ..

لأَنَ التَشَابُك مَعَها في هَذا اليَوم مُرهق حَدَّ المَوت ..

كُنتُ و لا زَلتُ لا أُحبُ الذَاكرة ، تلكَ الذَاكرة التي أَعرتني و جَلدتنَي في تَنور أحشَائهَا ، الذَاكرة التي أَرجو أن تُحرقَ و تُسحقَ و يُجمعُ رَمادهَا في كَف القَدر و يُرمى بهَا في بَحر لُجي ، أَكرهُ الذَاكرة عندما تُسَنُّ

أَطرافهَا في بدَاية يَومي ، و تَأتني في وَحدتي و تُلقي بي عَلى مَذبح خلوتي و تَبدأُ تَجُزُ نحرَ صَمتي ، كَم أَتَتني حَافيةً مُتَطرفةً قَاتلةً مَقيتةً مُميتة تُريدُ الانتقامَ ..

إنهَا الذَاكرة التي تَذبح بصَوت مُنخفض ، و تَغسلُ صَاحبهَا بدمه ، و تُكَفنهُ بالمَاضي ، و تُصَلي عَليه صَلاة الغَائب في محراب ظَلامهَا ، و تَمشي خَلفَ جنازَتكَ تَبكيكَ و تَبكَي لأجلكَ ..

ذَاكَرة أَشَدُ مَكراً من الثَعَالب الغَادرة ، و لأَنَ الذَاكَرة التي أَقتاتُ على مَرارتهَا صَاخبة إلى أَن تُفقد المَرء عَقلهُ ، فَإنهَا تَعرفُ متى تَستيقظ بمَلامح مُتَكسرة و شَاحبة و مُتعبة ، إلى أن بتُ أَكره صَوت المُنَبه الصَباحي الذي يشي بعَقاربه إلى السَاعة السَادسة فَجراً ، هي لم تَلسع الأَرقام السُدَاسية ، بل كَانت تَلسَعني بَصوت جَهوري خَشن :

صَباح الذَاكرة يا هَذا ، هَيا انهَض من سَرير مَاضيكَ ، و قف عَلى سَاقيكَ لكي تُغري المَسَافات ، و انظُر إلى

مرآة حَمامك بتَمعُن ، و أَخبرني بضَميركَ الذي فَقدتهُ قَبل أن تَصل إلى سن اليأس مَاذا تَرى !؟ ..

لا تَقُل لي وَجهكَ و شَارَبَيكَ و شَيبكَ ! ، فَالوجوه كُلهَا مُتَشَابهة و مُتَشَابكة إلى مُنعطف القَرف ، نَعم هَذا أنتَ ، أَنتَ تُشَاهد الذَاكَرة ..

كُنتُ أَتمنى أَن أُشبهَ ذَاتي التي ظَلمتهَا مراراً من أَجل إرضَاء الآخرين ، و لكن تَباً للذَاكرة التي جَمعت بَين دَفتي الأزل وجوهاً أَكرهُ النَظَر إليهَا إلا وَجهاً وَاحداً فقط ..

وَجه أمسَكَ المَوت بَكف رُوحه و سَحَبهُ إلى النور ، و لو أنهُ ذَهب بسلام لشَكرتهُ مَا بَقيتُ على وَجه هَذه البسيطة حَياً ، و لَكنهُ عندما أَفلت قَلبي حَطمني كَلوح زُجَاج و أدمَاني و تربصَ بي إلى هَذا السطر الغَير مَنطقي ، فلقد أَفلتَ قَلبي من ذَاكَ النُور و أَنَا لا زَلتُ أَجمعُ بَقاياي لعَلي أَكتُبُ حُروفاً من نُور أُحيي من بعدها القُلوب و هي رَميم ..

و هَل من وَصَل قَلبهُ إلى الرَميم سَتُحييه الكَلمات !
تَباً للسُطور الخَاوية من اسمهَا ، تَباً للذَاكرة الفارغة من وَحيهَا ، تَباً للقُلوب الجَافة من عطرهَا ..
يُمَّة !
سَأشكو لك من الذَاكرة التي قَيدت سَيل حبري من الانصهَار على سُطور الشَوق ، و دَائماً أَحذفُ كُل مَا يَشي عن الشَوق لأنهُ يجَلبُ لي وَحشَة الذَاكرة ..
كم كُنتُ أَتمنى يا حَبيبة الروح أن تُصَاب ذَاكرتي بالردَة ، و تُؤمنُ بوجودك أنتِ فَقط ، ذَاكرة لا تَقبل الشرك و لا تَجمعُ في شَكهَا سوى يَقين وَاحد فقط يُقَال لهُ :
يُمَّة ..
أُحبُ من الذَاكرة مُصَادفة وُجودك ، عندما تَأتني من بَعيد ، و تَقتَربي إليَّ أَكثر و أَكثَر كَمَرهم سَاحر خَلاب ، يَشفي العَليل و يُبرئ الذليل ..
يُمّة ..

يا حُطام ذَاكرتي ، و أَرقامَ رُوحي السرية ، و سحر قَلبي عندما أبتسمُ للحَياة ، هي الحَياة التي خَانَتني بذاك الحَدث الجَلل ، حَدثاً أنهَكَ أَحشَاءنَا ، و زَادَ من جَرائم ذَاكرتنَا ، هَل المَوتُ فَاجعة أم جَريمة ..

وَحدهُ قَلمي من يَعلمُ مَا مَدى تلكَ الفَاجعة التي نَهشَت ذَاكَرتي ، حَتى أَردتني طَريحاً بَين السطور لأَكتُب الذَاكرة..

هَل رَأيتَ مَاذا فَعلت بي الفاجعة!! ..

جَريمة بَحقي و بَحق كل مَن فَقد أُنثَى يَدعوهَا :

يُمَّة ..

قَالت لي جَارتي في الأُردن التي تَدرُس الشَريعة الإسَلامية ذَاتَ ربيع :

ـ إنَ الله يُحب العَمل الصَالح و الكَلمة الطَيبة و من أَحياهَا فَكأنما أَحيا النَاس جَميعاً ، و من ابتَعدَ عنهَا فَقد هوى ، و من تَقربَ إليهَا و عَمل بمُقتضَاهَا كَانَ الفَرحُ دَارهُ و النَبي جَارهُ ..

طَارَ قَلبي فَرحاً بهَذا الكَلام ، حَتى شَعرتُ بأنَ النبي جَاري و الفَرح دَاري ..

الفَرح !! ، تَباً لهَا من فَرحة ! ، هَل هي قطعة حَلوى ! ، أم أحد أنواع السَيارات ، أم مولاً في نيويورك ! ، فَمن شَاهدَ الفَرح بالله عَليكُم أخبرُوهَا بأنَ التَعاسَة دَارنَا و الشَيطَانُ جَارنَا ..

نَوايا الفَرح و دَسَائس التَعاسَة ..

أَعلى دَرجَات المُنَازلة أن تُقنعَ قَلبكَ بأَنكَ في قمة الفَرح و أَنتَ مُضَرجٌ بوَحل الحُزن و التَعاسَة ، يَتَقاطَرُ من أَشلاء تَصنُعكَ على الوَاقع دمٌ زُلالٌ بهِ لَذة الكائدين ..

و لو أَغدقتُ عَليكَ الأسئلة هَل سَتَقبلُ مواجَهة الذَاكرة الباذخة بالكَسل !؟ ..

و هَل تَعتَقد بأنكَ تسألُنا أم تُؤذينَا ! ، أَنا الذي قَطعتُ من الليل دُموعاً أَحملُ قَلبي بكف وَحدتي واثق الوَجع أمشي مَلكاً !!

تَمردت علي الكَلمات ، كما تَمرد موجُ التسونامي على جُزر من اتخذُوا من البَحر ملحاً و خُبزاً ..

عَجنَهُم البَحر في وعَاء القَدر ، و خَبزَهُم في فُرن القَضَاء ، و جَعلهَم كعَصف مَأكول ، و هَا هُوَ القَلمُ يبوحُ بمَا لا يُطيق و تَناثَرت العبارات على مَنشَر السُطور ، لتُجففهَا الأعين و تُرمَمهَا المَشَاعر ، و يا حَي هَلا بالمَشَاعر ، لأنهَا في مَحَل خَبر شَاعر ..

إنهُ ذَات السينَاريو الذَي حَصَل على تلكَ الشَواطئ التي ابتلعَها البَحر ، حَصلت في قَلبي ذَات ظَهيرة في مَدينة الرمثا في المَملكة الأُردنية الهَاشمية ، عندما خَرج الطَبيبُ من العناية المُركَزة :

ـ عَظم الله أَجرَكُم ..

هَكَذا و بكُل بُرودة أَلقى بهَا على مَسَامعي، كَأنَني ولأولِ مرةٍ أسمعُ صَوتاً كَذاك الصَوت الذي بَشَر بي في ليلة رَأس السَنة الميلادية ، من السَاعة الوَاحدة لَيلاً ، خَرجتُ من رَحمهَا كمَا يَخرُج الخَيط من المبرد ، خَالٍ من الهُموم ، فَارغٌ من الأَلم ، سَليماً من الجُنون ، مُعَافاً من ردة البَهجة :

ـ مُبارك أَتَاكُم صَبي كَفلقة القَمر ..

كَانَ صَوتُهَا العَذب يَأتي من بَعيد كَسَحابة ثَلجٍ في نهَايات الشتَاء بعَد هَذه البُشرى :

ـ أُريدُ رُؤياهُ ، أَحضروهُ لي ..

كَانت القَابلة القانُونية قد أَمسَكت بقدَمي و أَلقت برأسي إلى الهَواء ، أُشَاهدُ الحَياة بشَكل مُعَاكس ، هُم الذينَ قَالوا لنَا امشي على قَدَمَيك و لا تَمشي على رَأسكَ هَل يا تُرى خَدعونا ! ، كُنتُ أول مَرة أُشَاهدُ الحَياة و عَيناي تنفلق ببُطء أُشَاهدُ ستَائر الشيفون المرخاة و أَضواء المُفَرقعَات تُدشن لَون الغُرفة و شَيءٌ غَريب يتَدلى لي كَأنهُ حَبل أَعرفهُ ، حَبل قَاسَمني خَلوتي في رَحمهَا ، حَبل كَان يَمدني بصَوتهَا الذي لا يُشَركُ بجماله صَوت آخر و عَبق عطرهَا الذي قَبضَ رَوحي قَبل أن تُفلتَ رُوحها من قَبضَة كَفي ..

شَعرتُ بالبُكاء وَقتهَا فَصَرختُ بأعلى صَوتي :

- وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

و قُطعَ الحَبلُ كَأنما انكشَفَ أمري و انفضَحَ سري ، كَانَ وَحدهُ حَبلي السَري الذي يستُرُ سعَادَتي لأَنَهُ جُزءٌ من رَحمهَا ولأنهُ جُزءٌ مني وجُزءٌ من فَضيحتي ..

عَارياً أَجرُ خَسارتي بالبُكاء و العَويل ، و لَكأنهُ حَل البَلاء و العَناء ، و تَبخر الدفءُ و الحَنان .. شَعرتُ بالبُرودة ، و لكني لا أَفهمُ لُغَتهُم و لا أَعرفُ على مَا يَتضَاحكونَ لأَجله ، و لم أَعي سرَ هَذه السَعادة التي تَغمرُ تَضَاريسَ وجوههم ..

حُملتُ إليهَا تلكَ التي أُنتزعتُ منهَا عنوةً بغَير مَحض إرادَتي ، تَرفعُ يدهَا تُريدني كَانت مُشتَعلة نُوراً كَأنهُ بدراً قَد اكتمل ، كانت على وَجههَا ابتسَامةٌ كَأنها قَنديل رَمضَانَ الذي وَافانا :

ـ تَعال يُمَّة ..

قطعة من لحَم سَاخن كَانَت تغلي في قدر رَحمهَا تسعة أشهُر ، يَزيدُ وَزنهَا عن أربَعة كيلو غرام بعلامَة لحمية وَاحدة كَانت تَتَدلى بلا حَياء قَالوا لأبي الذي كَان يَترقبُ مَجيئي خَلفَ موارب الباب :

ـ مُبارك يا أَبو مَيسم أَتَاكَ وَلد ..

لم أعرف من أي رَحم أو صَلب أَتيت ، قَالوا لي بأنَ الأَصلاب من الذُكور و الأرحام من الإنَاث ، و رغم أَنف حَنان الأرحَام هَا قد أَتيت ..

تَحملُني بكفها المُعلقة في الهواء بَينَ أصوات مَدافع العيد و زَغاريد جَدتي الحورانية و الأُخرى البغدادية ، نَفسهَا يُنفخُ في وَجهي كَأنهُ ريحٌ من جَنة المَأوى يَدخُلُ خَياشيم جَسدي و يُطهرُ صَوتي من العَويل ، و يطويني على صَدرهَا كَطي مَلائكَة الله للكُتُب ..

كَانت أُذُناي تَسمعُ دَقات قَلبهَا المُتسَارعة ، كَأنها آلة خياطة تُطرزُ لها فَرحة لم يَعيهَا أحدٌ سواي ، أنَا الذي كُنتُ أُحصي نبضاتها بمقياس انبهَاري ..

أوحى التَعجب إلى أوكَار قَلبي انبهاراً آخر عندما صَمتَ فَمي عن الصُراخ في لَحظة هُبوطي إلى حُضنهَا ، كُنتُ أرتجفُ خَوفاً من هَذا الكَوكب الذي لا أعرفُ به سواهَا ، كُنتُ أتَجَسسُ على دَقات قَلبهَا و أتساءل : هَل هَذه هي التي كُنتُ أفتَرشُ رَحمهَا أم أُنثى أُخرى !! ..

تأكدتُ فَورَ هُبوطي إلى صَدرهَا بمقياس الانبهَار أنهَا هيَ ، شَعرتُ بلذة الأمَان ، نَعم إنهَا هَذه هيَ أرضَي التي ضَخت لي كُلَّ مَا لذَّ وَ طَاب من مقومات الرَاحة و الأمَان و السَلام..

سَبعة نسوة يُقال عَنهُنَّ خَالات و عَمات و جَدات ، و رَجُل وَاحد فقط كَانَ أَكثَرهُنَّ سُروراً و بِشراً ، سَمعتُ طفلاً صَغيراً يَحملهُ ذاكَ الَرجُل يدعوهُ :

ـ بابا .. بابا ..

كَانت تَرمُقني بحنان ، و تَتَبعُ بعَينين أجَهدهما التَعب مَلامح وَجهي ، و تَهمسُ في وَجهي :

ـ يا بَعد عُمري يا .. يُمَّة ..

لَقد وَضَعت الرَاحلة بي على صَدرهَا ، كُنتُ مُبتلاً بمَائهَا اللزج قد أعياني الجُوع و العَطش ، لم يَفهم عَليَّ أحد أبداً ..

كَأنهَا عَرفت مَا يَجول بي ، كَأنهَا لاحَظت بأنَّ هَذه القطعة من اللحَم بحَاجة إلى سُقيا مَاء أو شُربة غذاء كَي تسند تَعبَ مَسيرهَا الذي آوى إليهَا :

ـ جيعان يا يُمَّة !!

نَعم أنَا جَائع ..

جُوعي فَاجعة قد أُغتيلت مُذ أن أولمت اللحُود على التهَام حُضنهَا ، فَاجعة لا تُصَدق و لا تحتملهَا قُلوب الجبال الشَاهقة و الصُخور العَاشقة ..

هَل يا تُرى كُنتُ جداراً يُتقنُ المُراوغة على الصَمت طيلة وُجودها تلك التي كُنتُ أدعُوهَا :

يُمَّة ..

كَانَ لا بُدَ أن أَكونَ صَخرة صَامتة مُلقاة على عبثية الطَبيعة لا يَأبهُ لهَا أحد و لا يَعلمُ مدَى صَلابتهَا ، كَانَ لا بُدَّ لي بأن أكونَ مَوجة بَحر تَصفقُ حَظهَا على شَاطئٍ لم تَدُسهُ مَخالبُ البَشَر ، كَانَ لا بُدَّ لي بأن أكونَ عنكبوتاً يَبني بَيتهُ على وَهنٍ و مَا أن شَبَّ أَولاده و جَاعوا أَكلوهُ و ألقوا به من مشَارف الجُسور الواهية ..

و لكن من أتقن حياكَة الأَقدار كَانَ يُعد لي ثَوباً من وَجع على قياس وحدتي و منفاي في أَحد الدُول الأُوروبية !!

مَا معنى أن أَكتُبَ عن :

يُمَّة ..

و أنَا من سَارَ على جسر فَضيحة مُعلنة تَشي بالوَجع ..

نعم يُمَّة أنَا جَائع لرؤياكِ ..

كَانَ ثَديهَا مُنتفخٌ إلى مَا فَوقَ رَأسي يَترنح و يتأرجح كَقطعةٍ هُلامية ، لم أكُن أعرف مَا هُوَ و لا فَوائدهُ ، كنتُ عندما أمرُ بسَبيل سُقيا مَاءٍ في دمشق العَتيقة أتذَكَرُ ثَدييهَا ، كَانَ يَنقُصهُ شَيء وَاحد فَقط أن يُكتَبَ على صَدرهَا :

و سَقاهُم رَبُهم شَراباً طَهورا ..

لَقد كَانَ حَليباً طهوراً ، حتى أكرمني اللهُ بزيارة بَيت الله الحَرام أكثر من أربع مَرات ، كَانت تُخبئ لي مَا يتَيسر من المَال كَي تُرسلني إلى الحَبيب المُصطَفى صَلى اللهُ عَليه و سَلم ، تُلقي في أُذُني وَصيتهَا :

ـ يُمَّة سَلملي على رسَول الله ..

كَذبتُ على قَلبي ذَاتَ قراءة لكتَاب بعنوان : الرَحيق المَختوم ، للعَلامة مُبارك فوري عندما أنهَيتُهُ قُلتُ :

ـ بأبي و أُمي أنتَ يا رَسول الله ..

لو سَمعني رسَول الله لَقال لي :

ـ أنتَ تَكذب يا أبا سَعد فَأنَا أعلم بأنَ لا حُب يَعلو على حُب أُمكَ ، و لا شَوق يُجاري شَوقهَا ..

كُنتُ أَستَحي أن أعترف لرسَول الله بالحَقيقة ، أخجلُ من ذَاتي عندما أَمشي بَجانب شُباكه الذَهبي ، يَجلدُني ضَميري بسياط التأنَيب ، جَميعُ من يَطوف تَحتَ قُبته الخَضراء يُحبونهُ و يَذوبونَ لشَوقه ، عُيونهُم تَتَمسَكُ بالقَفص المُكسو بالآيات المُذهبة التي تُحيطُ مَقامه الرَفيع ، أَصواتُ الحُب تَتَهافت إلى قفَصي الصَدري ، تُريد الخَلاص من هَذا الذَنب الذي جَعلهَا أحب شَيء لدَي ، كَانت شَظَايا نُور النُبوة تُريدُ حَقها بالقصَاص ، بتُ أسَأل نَفسي :

ـ هَل عشق الأُمومة جَريمة لتُجرد القُلوب من الرَاحة و تَرمي بها عَبر تَزاحُم السُطور ، و أمَامَ نَظر الرَسول !! ..

ـ نَعم يُمَّة أنَا جَائع ..

تَفك أزرار قَميصهَا الوردي ، شعَرهَا المُنفلت على الوسَادة مُشتعل كالخَريف ، شَفتاهَا حكَاية أُخرى لا يَستوعبهَا قلم و لا تُسورهَا سُطور ، كَانت عَيناي المُنتَفختان اللتان سُحبتا إلى مَمَر فردي تَتَجسسان على الحَلمَتَين المُنتَفختين كَأنهُمَا تُوتَتان دَمويتان قُطفتا للتَو من غُوطة دمشق ..

أُحاولُ أن أُمسكَهُما بَكفَين لم يَعتادَا على مسك مَا أُحب ، أتَذكرُ عندما كَانَ حَبلُهَا السري مُعلق في سُرة بَطني كَانت تأَتني الأَشَياء زَاحفة لاهثة ، و الآن أظنُ بأنَني أُريد الاعتماد على كَفي المُنتَفخة التي لا أَعرفُ أُحركهَا أبداً ..

ـ وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

تُضيفُ السَعادة على وَجههَا بلمسات ذَات الأنوار التراجيدية ، كَأنَهَا غَزال و أنَجبَ ظبياً ، يا لجَمَالِ خَديهَا في لَيلة رَأس السَنة ..

كَأنما رُذاذُ سُكرٍ هَبط على كَعكة فَرولة ..

ـ أرضعيه يا هيام ، أَرضعيه يُمَّة ..

جَاء صَوت جَدتي من بَعيد كَأنها سَيارة إطفاء تُريد أن تُخمد حَرائق عَطشي ، جَدتي التي أَنجبت أُمي ، تلك المَرأة التي لم أَعرف أنهَا جَدتي إلا بعَد أن دَخلتُ إلى الصَف الأول الابتدائي ..

كَانت امرأة شَهية و مُشبعة بالطيبة ، و لكن طيبة أُمي لم أجد لها وَصف لأنَ القُلوب تَعجزُ عن وَصف مَا فيهَا ..

أشرعت صَدرهَا المُنتَفخ بالحُب ، كَأنهَا تلة مَكسوة بالحَرير الأبيض و بدأت تُحاول أن تسقني من سَلسَبيلهَا :

ـ يالله يُمَّة ارضع ..

أُريد قياس هَذه المَادة في فَمي ، حَبة التُوت تَتَربع بَين شَفتاي ، و أنَا المَسكين الذين لا أعرفُ مَا أَصنع ، كَان دَرجة حَرارتهَا مُعتَدلة جداً ، أُحاولُ قَضمهَا بلثَتي

اللحمية ، أَقضُمهَا مُحاولاً ابتلاعَهَا ، أتشَردَقُ بلُعَابي و بمَادة لَذيذة خَرجت من حَبة التَوت ..

أسعُلُ كَسُعَال هرة ، و أُغمضُ عَينَي من السَائل الذي يَكَادُ يَخنُقني ، تسَحبُ ثَديهَا من فَمي و قد أوقعَها الخَوف :

ـ يا حَبيبي ، الوَلد مو عَارف يَرضع ..

تُحاول مَرة أُخرى ، تُدخلُ التُوتَة في فَمي ، كَانت تُوتة مُغطاة بمَادة بَيضَاء ، رُبمَا هيَ كَريمة أو قشدة بالعَسَل ، أُمسكُ بَيدي المُنتَفخة ذَاكَ البَالون الذي تَتَخللهُ عُروق تَميلُ إلى اللون التركواز ، عُروق مُمتدة و مُتشَابكة حَول ذَاتهَا و حَول نَفسهَا ، كَأنهَا تَنبضُ عشقاً و تُحيكُ أُمومةً ..

أَجفاني المُنتَفخة ..

تَتَدلى حَول عَينيّ كَأنهمُا انشَقتا بشَرطَة سكين ..

أُحاول أَن أَتقَصى مَا يَجري حَولي ، و لَكن أصَوات جَداتي تَكادُ تُطبقُ على أُذُنيّ ..

تُحَاول المسكينة أن تُرضعني ، و أُجهدُ نَفسي على تَقَبُل قطعة التوت التي تَسَللت لشَفتَيَّ من غَير إرادة مني ، شَيء كَالمَغناطيس يَجذبني إلى ثَديهَا ..

الحَرارة هُنَا لا تُشبهُ أجواء شَواطئ المُحيط الهَادئ ، هُنَا مُحيط الجوع و العَطش ، أَكادُ أعي بأنَ لا سَبيل سَيُشبعني سوى هَذا السَبيل ، كدتُ أن أَقولَ لهَا :

كَيفَ السَبيل إلى ثَدَييك دُليني ..

أَقتَحمهُ عنوة أُريدُ من شَفتاي المُتَدليتان كَقُطوف الكَرز أن تُمسكَ بحَبة التوت ، تلكَ الحَلمة التي أَضحت حُلماً بالنسَبة لي ..

و أَخيراً أمسَكتهَا لَثَتاي و أَفلتَت من شَفتاي بينما كَانت تلكَ المُفعمَة بالأُمومة تُلقي بشَعرهَا المُبتل بعَرقهَا خَلفَ ظَهرهَا :

- وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

خَرجَ من فَمهاَ قَهقهة استفزازية ، قَلبَ وَجهي كَحبة لفت أَحمر ، جُنَّ جُنوني من هَذه الحَركة ، كَانت تُحاول أَن تُعيد الكَرة مَرة أُخرى ، و لكنَي رَفضتُ ثَديهَا نهَائياً ..

نَدمتُ وَقتهَا و أَخفَيتُهَا في قَلبي إلى يَومي هَذا ، مَوجوع ممَا صَنعهُ جُنوني ، أُريدُ صَدراً كَصدرهَا كَي أُريح جُوع وَجعي ..

جَائعٌ إلى أن تَحطَبَ الألمُ في منَفاي ، مُتَعطش لَكفهَا الذي يُشبهُ كَفَ مَلاك أتى من السَماء ليقول لأهل المَعاصي :

استَبشروا فَقد غَفر اللهُ لكُم ..

كَانَ و لا زَال يَجلدني الندم بَسبب حَمَاقتي و مَتانة رَأسي الذي يَطويه عنَاد كَأنهُ لغز حير العلمَاء ، و حَتى حَير

اللجنة التَنفيذية من جَدات و خَالات و عَمات اللواتي يجثُمن فَوق رَأس أُمي في بداية مَجيئي إلى هَذا الكَوكب ، لم يَكُن ذَاكَ الرَجُل الذي سَقطَ في كَف عَينَي سَعيداً بهذا العنَاد ، و أيضاً لم تَكُن هي كَذلك ، فكَانت تَنتَظرُني حَتى أَهدأ :

ـ أووووه .. أووووه .. أووووه .. يا الله يَا يُمَّة ..

شَعرتُ بأن غَليلي قد ارتوى ، صَمتَ العَويل و هَدأت الأنفاس ، أسَتنشق الهَواء بصُعوبة و أبتَلعُ لُعَابي مع شَيء كَان يَنزلُ من أنفي ، شَيء طَعمهُ مَالح جداً ، و مَع ذَلك كَان يَزيدنَي عَطشاً ..

و أخيراً دَخلت التوتَة في فَمي حتى تَدفقَت منهَا مَذاقات عدة ، و مع كُل تلكَ المُتعة التي أسحبُ مَا بهَا من سَوائل لا أعلمُ مَا هي ، كُنتُ كَقُنبلة موقوتة رُبمَا تَنفَجر في أَية لَحظة إن أفلتت التوتَة من شَفتاي ..

كُنت مُستَمتعاً جداً ، كَأنَني آكُل الفُشَار مع عَصير الليمون قابعاً في السينما في أَحد مُدرجَات بَاريس ، يا

لهَا من مُتعة ، كُنتُ أَنظُر إليهَا بَعَينَين أَدركتَا التَجسُس قَبل أن يَنمو عَظمي و يشَتد سَاعدي ، أخشَى من الإفلات من تلكَ التُوتَة من حُضنها من رَائحتهَا من كَفهَا من بَسمتهَا من صَبرهَا من كَمدهَا من تَعبهَا من صَمتهَا من صَلاتهَا من شالهَا من سُبحَتهَا ..

أَخشَى أن أُفلتَ من كَفهَا و أَقع خَاوياً لتَركُلني جُدران الزَمَان..

كَان الإفلات بالنسَبة لي شَيء مُزعج و مُغضب ، و لكن مَهما ألمَّ بي الغَضَب كُنتُ على يَقين بأَنني لن أُعيد الأشَياء المَكسُورة إلى أناقتهَا ، كُنتُ أخشَى كَسر قَلبهَا لأن قَلبهَا لا يُضَاهيه قَلب ..

كَأنهُ قطعةُ كريستَال ..

قطعة ثَمينة لا تُقَدرُ بملء الأرض ذَهباً ..

ذَهبَ كُل شَيء ، و انَكسَر مَا كُنتُ أخشَاه ، و أفلتت تلكَ الأصَابع الصَغيرة من قَميص أُمهَا ، و أَنَا أقفُ منذُ ذَاكَ الحين تَحت تَأبين الكلمَات ..

حَفل تَأبين ضَخم حُشدت لهُ العبارات و حُبسَ خَلفَ وَجعها الحبر يَخطُ ألمهُ ، و باتَ القَلبُ يسَألُ السُطور التي لا يُسَورهَا سوى مَشَاعر مُرهقة جَردهَا الحَنين و اعتزلت هَذا الكَون تُراقبُ عَقارب الغياب كَيفَ تَطوي الشَيب خَلفَ مقود الرأس و تَجهشُ بَاكية و تَقول :

- أينَ هيَ !! ..

هَل الأرضُ تُسَألُ عن مَا التَهمتهم من أَحبة !!

كَيفَ لا وَ هيَ كُل الأَحبة !! ..

كَيفَ لا و أنَا لا زَلتُ أسحبُ منهَا كُل مَا فيهَا أُريدُ كُل مَا في هَذه الكُرة المُنتَفخة ، أسحبُ و أَسَحبُ بشَدة و أُفرغُ مَا فَيها من لَبن رَائب في معدتي التي عَرفتُهَا في السَنة الخَامسة الابتَدائية بَينما كُنتُ أدرسُ عُلوم الأَحياء ..

أيُعَقل ذلك؟ هل لي معدةٌ بالفعل !! ..

ها ها ها ، يا أبله و أينَ يَذهب كُل هَذا اللبن الذي سَحبتهُ بشَفتيك !! ..

اطَمأن بَطني عندما سَمعتُ جَدتي تَقول :

ـ حمداً لله أنَكِ فَطمتِ أخاهُ الكَبير عن الرضَاعة حَتى يَكفيه الحليب ..

ابتسَم قَمري و عَينيهَا تُراقبان ثَديهَا و هُمَا يَضُخَان لفمي أنواع المَشروبات و الألبان والأَجبان و رَاحت تُفسر و تُؤكد مَا قَالتهُ جَدتي :

ـ كَان عندي يَقين بأنَ كَرشَهُ كَبير ..

الثَالثة و النصف و بَقايا ثَرثَرة فَوقَ رَأس أُمي ..

كَانَ ذَاكَ الفَتى الذي يُدعى أَخي قَد ألقى بنفسه طَريحاً على سَاعد والدي من بعد أن وَسدهُ النَوم على مُوسيقى القال و القيل الذي لم أعُد أطيقهُ ..

كَان انتمائي إليهَا وَحدها ، لا أُريدُ شَريكاً لي في دفئهَا ، أُريدُهَا بَعيداً عن اضطراب هَذا الكَون ، مع صَوت المَطَر الذي لم يَرحم جُعودة الغيوم من البُكاء ..

هَدأ البُكاء في وَجهي ، و لكن قَلبي لا زَال يَعصرُ منَاشف العَويل و الانتماء ، يَكسوني تَارة بالرَاحة و تَارة يُعريني من سُقوطي خَوفاً على صَدر كَانَ أَقربُ إلى ذَاكَ الرَحم ..

إنهَا هي ، التي تَبتَسم لرُعبي ممن حَولي ، من زَخم النسَاء ذَات الأشَكال المُختلفة ، من رَجُل أنَا جُزء منهُ ، من أَخ قَاسَمني ذَاكَ الظَلام المُغمس بالنُور ذَاتَ حَمل ، و مع كُل هَذا الصَخب المَجازي يَنتابُني نُعَاس شَديد جداً ..

تنتابني العَودة إلى رَبيعها بحَبلي السري الذي أفلت من قَبضة سُرتي عُنوة رَغماً عني ، هَل يا تُرى أنَا من نُزلاء هَذا المكَان !!

هَل هُوَ فُندق مُجهز للضَوضاء و القَال و القَيل ..

كم رَقم غُرفتي التُرابية ! ، من سَيحمل حَقائب جَزعي ، من سَيوصلني إلى النهَاية حَيثُ النَوم الأبدَي على صَدرهَا ، من هُوَ النَادل الذي سَأُعطيه عشرة دُولارات مُقَابل إيصالي إلى المُنتهى ..

هَل هي المُنتَهى !! ..

استرخت مفاصلي و أعصَابي ، و لكن لثتاي اللحميتان مُتشبثتان بالتُوتَة ، أخشَى أن تُفلت من شَفتاي و لا أعد أصل إلى مَلبن الأَحلام الذي غَسَلتُ جُوعي في حَرمه و سقيتُ تَحطُب عَطشي في مَسعى قُدسه و أصَابت معدتي منهُ تُخمةً حَتى تَعرقَ جَبيني ..

كَانَ ذَاكَ الرجُل يَقول :

ـ غَداً سَوف آتي بطَبيب الختان ..

سَقطَ قَلبي مُرتَطماً بتُخمتي مما سَمعت ، تَحركت أُذُناي كَأنها مُؤامرة بدأت تُحَاكُ ضدي ، نَظَرتُ إليهَا كَانت مَلامحي تُوحي إلى الشَفقة ، شَعرت المسكينة بالكمين الذي سَيسحقني..

تَدخَلت كَأنهَا تُدَافعُ عن حَقهَا :

ـ لا زَال صَغيراً ، اصبروا عَليه بعد خمسَة أشهُر ..

العَنيفات الحَمقاوات فَوق رَأس أبي ، كَأنهُن قد أَخذنَ سَندات تَوكيل عن أَخذ القَرارات عني و عن والدي ، تَدخلت مَا تُسَمى خَالتي :

ـ أنَا أُفضل أن يَختَتن بأسرع وَقت ..

كَان من الفَزع و التَعجُب مَا يُؤرقُ مَصيري ، أشياء تَدورُ حَولي و لا أفهمُ مَا فحواها ، و لكنهَا مُزعجة جداً حد الغَثَيان :

مَا هُوَ الختان !! ..

ارتفعت الأصوات بين مُؤيد و مُعارض للفكرة الضَبابية ، كَأنَنَا في مَجلس نُواب لأحد الدُول العَربية ، كَانت

الجَدَتان مع وَالدي في هَذا الرَأي ، و استقر القَرار على رأي الكبار، على هذا الكوكب المُتَعجرف ، الديمُقراطَية في مَحل خَبر كانَ ، الرَأي لمَجلس الشيوخ فقط ، فالقاعدة تَقول :

من لَيسَ لهُ كبير .. لَيس لهُ تدبير ..

رُبمَا أنَا ضحيةٌ في وَسط هَذه الحرب الغير منطقية ، خلعَ قَمري صَوتهُ و استَبدلهُ بالمَشي حَافياً غَير رَاضٍ بمَا سَيجري لي ..

ها .. ها .. ها .. في الحَقيقة كُنتُ خَائفاً على نَفسي ، لم يكُن يهمني من حَولي و لا حَتى هي ، وُلدتُ وقد ولدَ الخَوفُ معي و بدأ يَنمو شَيئاً فَشَيئاً ، كُلمَا تَقدم بي العُمر و نَمَت على تَوجسي من المُستَقبل آثارُ الرُجولة ازدادَ خَوفي من فُقدان ابتسَامتهَا ..

و من قَال بأنَنَا نَموتُ قدراً !! ..

الأقدارُ آلة تَصويرية تُوثقُ مشَاهدنَا بدَقة إلى يَوم يُجعلُ الولدَان شَيباً ، حَتى تشهد عَلينَا أرصفة الحُب بمن سَارَ عَليهَا من أَحبة ..

نَحنُ نَموتُ خَوفاً بانتعَال المَاضي و السَير به نَحوَ الرُفوف التي تَطويهَا روايات قد دوخَها الغُبار و لم يَمسهَا أحد من الزُوار ..

كَتلكَ الشَواهـد المنَسية تَمَاماً في مَقابـر الإتـلاف ، نَخافُ أن نُنسَى و نُمحَى من الذَاكـرة و نَعودَ رمَاداً لا يَقبلنَا غُبار الطَلع و لا تَهضمنا أمعـاء الأرض ، و حَتى الديدان تُنكـرُنَا و تَدعي بأنهَا لم تقضمَ لحَمنا !!

أيّ إنكار نحنُ نَعيشهُ يا تُرى !! ..

نَخشَى من المَوت خَوفاً من تَفاصيل مُتقدة بالرحيل ، كم كُنتُ أتوسَد باب الله أن يَجعل حَياتي قَبل حَياتهَا ، و بتُ أسَأل قَلبي الذي غَلفَ تلكَ الدَعوات بأشَرطة الرعَاية :

هل خَانت الدَعوات طَريقهَا إلى الله !! ..

جَبرَ المُؤمنون سُؤالي بحكمة الله التي لا تُضَاهيهَا حكمة ، و لأنَ لفيف المُؤمنين تعَلقوا بالذَات الإلهية تعَلُقاً بين الرَجاء و الخَوف احتَارَ قَلمي عندما كَتب ذَاتَ خَوف : لا أعلم من يَخافُ ممن !! ..

نَقرَ النُعَاسُ وَجنتاي كَما نَقرَت ثَرثَرة من حَولي رَأس أُمي ، كَيفَ أُريد أن أُوصلَ لهَا :

ـ أُريدُ النَوم يا أُمي ! ، هَل سَأعود إلى أَحشَائك ! ، أم سأبقى هُنَا هَذه الليلة ! ، أم مَاذا !!..

أشياء كَثيرة كُنتُ أُريد أن أَقولهَا لهَا ، هَل كَانَ الخَوف المَالح هُوَ الذي مَنعني من ذَلكَ ! ، أم الحَياء المُبلل بالاحمرار ! ، أم لم أُروض على نُطق الكَلمات الغَارقة بزَيت الرُجولة !..

كُنتُ أنتَسبُ إلى صَمتهَا دَائماً ، أُحاولُ أن أُخفف عن جَبروت هَذا الكَون الذي قَتلهَا ظُلماً بشَطبة قَلم ، و أَحياناً بسَير قَدر ، و أتمادى على مَسَافات الفَقد غَير رَاضٍ بهَا أبداً .. تَباً للمسَافات .

كانَ الضَبابُ يَخترقُ أَجفانَي..

كَانت عَاهَة الحيرة تَفتكُ بي هَل أنَام أم لا !! ..

كُنتُ أملأُ جفناي بالقوة كَي تَبقيا مُنفَلقتَين لأعرفَ مَا يَدورُ حَولي من مُؤامَرات ، فَثمَة أشياء لا بُدَ لي من كَشف أغطيتهَا ، يَدورُ شُغل عَقلي بهَا كمَا يَحوم الذُباب حَولَ قطعة الحَلوى المَكشُوفة ..

مَوارب الارتخَاء تَفتَحُ لي أَبوابهَا ، خَلفَ تلكَ الأَقفال أصوات تُغني بهُدوء ، لم أَعُد أُمَيز صَوت الذي يُغني ، حَتى اقتَحم السكونُ أنفَاسَ الفَجر لتُردي بمن كَانَ حول أمي خَارجَ غُرفتهَا ، لَقد عَرفتُهُ حَقاً :

ـ يالله تَنام .. يالله تَنام ..

ـ لذبحلك طَير الحمَام ..

كَانَ صَوتُهَا بمَثابة جَريمة بحَق رحلتي التي جَلبتني إلى هَذا الكَوكب ، و كُنتُ فُضولياً جداً لأَستمع إلى مُوسَيقاهَا ، كُنتُ أرَاهَا تَحملُني و تَضَعني على سَطح سَريرهَا و

تَستُر شَيئاً لم أَكُن أَخجل منهُ و لا يُهمني أمرهُ بتَاتاً ، و كُلمَا شَدت عليَّ الوثَاق هَدأ صَوتهَا و تَقطعُ ذَاكَ النَشيد :

ـ بدك تَنام يا بعَد اليُمَّة !؟ ..

أَخرجُ من عَباءة النُعاس ، كأَنَ قَلبي يَتَصببُ حُباً لهَا ، كَيف لكَف مُقَيدتان باللا وَعي تَعجزان عن تَقبيل رَأسهَا ، تُحَاولُ بكُل وَجعهَا أن تُكفَنني بوشَاح قُطني و تَضحكُ و تُغَني و تُدَاعبُ و تَهزُني بَين قَدمَيهَا ..

كَانت ريح تَتَطايرُ بُكل شَجن ، تُغَني معهَا بصوت المَلائكة ، حَولهَا نُورٌ عَظيم قَد هَبطَ من غَير إذن منهَا ، و لَو رَأتهُ لسَقط قَلبهَا رُعباً ، كُنتُ أُشَاهدُ الهَالة التي اجتاحت سَعادتهَا بلهفة ، يَكادُ النوم يَذوبُ في مَحلول الدَهشَة ، أو لعَلي أنَا أَذوبُ مع صَوتهَا ، هَل كُنتُ مَاءً سَاخناً و سَقطَ صَوتهَا كَقطعة سُكَر في قَلبي !!

من الذي ذَاب حَينهَا أنَا أم هي !؟ ..

هَوس الأحَاسيس تَتَأجَجُ في خَراطيم أعصَابي كَي أُروضَ على حُبهَا و القُرب منهَا ، و تَنتَابني قَشعريرة

تَقلبُ مضمارَ مَدى انصَاتي لهَا إلى نَوم جَارف يَسحبُني إليه بلا أيَة شَفقة!!..

أعاصير من الوَجد تَبتلع المَدى حَتى اختفى المَدى و اضمحلت هيَ خَلفَ المُنتَهى ، أرَى أصَابع مُتشَابكة بأطراف أصَابعي البضَة ، كُنتُ خَائفاً من النَظر إلى ذَاكَ النُور الذي يَمشي بجَانبي ، استَرقتُ النَظرَ إليه فَإذا هي أُمي ، تَقفُ كَجبل أُحُد شَامخة مُعِزّة ، قَد سَارت فيها خمسة آلاف قَافلة من مَلائكة الفردوس الأعلى ، أَيُعقل؟ هل كَانَ هُنَاكَ رَسول الله !! ..

يا إلهي ، مَا أعَظمهَا من أُنثَى و مَا أحنهُ من جَبل ، اهتَزَ في أَحشَائه شَوقاً و فَرحاً لأنَ النَبي وَقفَ على كَتفيه ، صَاحَ النَبي به قائلاً :

ـ أُثبت أُحد فَإنَ عَليكَ نَبي ، و صَديق ، و شَهيدان ..

يا للعَظمة ، مَا أبهَاهَا من مَكرُمة و مَا أقدسَها من لحظات ، و هَا هُوَ التَاريخُ يُعيدُ ذَاتهُ ، فَلا لَومَ على قَلبي أمَامَ فَرح و شَوق الجبل لنَبي الله مُحمد ..

اهتَزَ القَلبُ فَرحاً و طَارَت العَينانُ نَوماً ، و صَاحَ الفُؤادُ قَائلاً : أُثبت أَيهُا القَلب فَإنَ لكَ أُماً حنوناً رَحوماً لَذةً للنَاظرين .. !

هَدأت الأَنفاسُ أمَامَ تلكَ اللقطة النُورانَية على أَمل ارتداء رُؤياهَا مراراً و تكراراً ، هَل كَان ذَاكَ النُور معطفاً أم شَالاً أم قَميصاً !! ..

كَانت أشَلاء أَحلامي تَجرُ عطرهَا بقطار كهول ، يَقتاتُ على فَحم وُجودهَا لتَسير الأُمنيات المُعلقة بحلقاتٍ افتراضية ، موهومٌ ذَلكَ الطفل الذي لم يَبلُغ الحقد على الأَقدار :

ـ بأنهَا لا زَالت هُنَا ..

و كَيفَ لي بإقنَاعه أنَ بُوصلة السَماء تَاهت حينَ اختَارت رُوحهَا لتُنزلهَا في أَول مَنَازل السمَاء ألا و هُوَ التُراب !!

كَيفَ سَأُقنعهُ بأنَ السمَاءَ و التُرابَ إخوة و أباهُم المَوت و أُمهم الجَنة ! ، هَل سَيُصدق خُرافَاتي أو سيُلقي بأَهوائي في منازل الآخرة !!

على أبواب الثَلاثينيات أُسندُ رَأسي على وسَادتي لأُريح تَجبُري على حُكم السَماء ، و ما إن أَغفو على شَقاء منَفاي حَتى يأتني ذَاكَ الطفل الذي حَاولتُ أن أَقتلهُ مراراً ، و يصرخُ في أُذني :

ـ أُريدُ حَقي ، أُريدُ أمي ، أَعدني إليهَا الآن !!

و يَرفعُ صَوتهُ باكياً بأعلى عَويله ، كان صَوتهُ يأتيني كَزلزال مُرعب ، أشعرُ باهتَزاز شقتي و تَشَقُق طلاء الجُدران ، أَنظُرُ إلى الثُريا التي تَتَوسط السَقف كَيفَ تَتَسَاقطُ قطع الزُجَاج من حَلقاتهَا ، أُشَاهدُ رُفوفَ المَكتَبة كَيف يتَدحرجُ منهَا المُجَلدَات بطَريقة مُفزعة ، تَتَوقفُ عَينَاي على طَاولة المَعيشَة كَيفَ تَتَحطم بصَخب بُكاء ذَاكَ الطفل الذي أحدثَ مَعركة في مضَجعي ، حَتى أطباق الطَعام لم تَنجو من الهطول أرضاً طَبقاً تلو الطَبق

حَتى تَتَحطم و تَكونُ هَباءً منَثوراً ، يُوقظني مُنَبهي الأخضَر الذي أنجتني عَقاربهُ في السَاعة السَادسة صَباحاً من كابوس ، أنظُرُ حولي لأُشَاهد شَقتي أَجدُهَا كَمَا هيَ لم تَهزهَا شَعرة ، أبَكي بشدة حَتى يبتَلُ فراشي بالدموع ، كمَا بَال ذَاكَ الطفل أول مَرة في حَفاظته البَيضَاء ..

سني سَت سَاعَات و حفاظ مُبتَل بالبَول ، و شَمس مُشرقة تَدخُل خُيوطهَا كظَل خَالتي الوسطى التي كَانت قَامتهَا كَقامة أحد أعمدة سَرير الولادة بطلائه الأزرق الذي يَدلُ على ذُكورة الجَنين أو رُبمَا من العَين و الحسَد ..

مُبتلٌ باللا زواد ..

مُبتلٌ باليُتم يتَقاطرُ من بَين فخذَي وَحدتي نَجس الحَياة و البَشَر الذينَ زادوا في أذيتي ، قَالوا لنَا ذَاتَ خطبة منبرية في أحد أيام الجُمعة المُباركة بأنَ الكَلبَ نَجسٌ و رجسٌ من عَمل الشَيطان ، كَذبت المنابر و من امتطاهَا من أوصياء على عَقائدنَا ، كدتُ أصرخُ بأنَبياء الله :

أخرجوا من أضرحتكُم و شَاركونَا صَخبَ هَذا الانحلال الذي أنزلَ منازَل الأوفياء في دَرك المهانة و جعل من أهل الخُبث أعزاء و كراماً ..

إنها الفُتوحات العقدية التي أتونا بها من عالم الغَيب و أغلقوا منافذَ إنسانيتنا ليعيثوا بهَذا العَقل خراباً ، بتُ أستقذرُ كُل من يُجابهُ عن قَانون الله ، هل الله بحاجة لمن يُنافحُ عن حماهُ !..

طَريق النُور الذي يُؤدي إلى الحُب هو طَريق الله ، و لا طَريق إلى العشق سواه ، فالله هُو الحُب و من اتخذَ

الحُب مَذهباً فَقد فازَ فوزاً عظيماً ، فَاعتبروا يا أولي الألباب ..

يَرتطُم قَلبي في مُستنقع بَولي عندما أُشاهدُ خَالتي التي تَقفُ فَوق رَأسي و تَقرأ آيات من القُرآن الكَريم و تَتلو الصَلوات الابراهيمية على النبي مُحمد و آل نَبيه و صَحبه و من اقتفى أثرهُ ..

كَانت مُرعبة حدَ الإغماء ، تَقفُ فَوقَ رَأسي كدجاجة عرجاء قد سُحبت للتَو إلى مَسالخ البَلدية العامة ليقتات عليهَا الجَيش العربي السَوري ، مَا أتعس لحم الدجاج المسلوخ و بقايا رُفاته من عظام و مرق بين أيادي جياع الوطن من مُقاتلينا الأشاوس ، و لو رَأيتهم و هُم يَتدافعونَ إلى قصعة الدَجاج لقَرفتَ الدَجاج و مُشَتقاته إلى يوم الدَين ..

تَعقدُ خَالتي حجابها تحَت ذَقنها ، عينان غَائرتان للرحمن ، و وجنتان مُنتفختان كَطماطم ريف حوران ، و تمتمات في آخر قراءتها لما تَيسَر من القُرآن لا يُفهم دَبيبهُا ،

أُحدقُ إلى حَاجبيها المَنتوفين بملقط نسائي ، يتدحرجُ الخَوف من ظلها الذي اجتاحَ تَسمُري أمام شَبحها ، و أنفاسهَا تَجتاحُ خياشيمي من كُل منافذها الحساسة ، رَائحة الثُوم و البَصل تُرسل إلى خلايا دماغي كما أرسل ابليس أتباعهُ إلى كُل أصقاع الأرض ، و عسيس إبط يَترنحُ على منافذ جُنوني ، كدتُ أن أصرُخَ في وَجههَا باللهجة المَصرية :

ـ في ايه يا ولية ، بعدي كده عني ، دنتي دبحتيني بريحة البصل و الثوم و الجرجير .. !

أشعرُ برطوبة بينَ فَخذيّ تُدغدغ غَضبي ، و الهَواء قَد حُبسَ من المجَيء نَحوي بَسبب خَالتي التي اتخذَت من شَفتيها مذياع للقُرآن الكَريم ، كَيفَ سَأدفعها بَيدي !! .. إنهُ الحَل الوَحيد الذي أُتقنهُ :

ـ وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

و انفجرتُ في وَجهها كَأنها بَوابة قَبر و انشَقت بقُدرة قَدير مُقتدر ، لتَسحبني من سَريري الأزرق و تَهُزَ بي فَوق ثدييها المنتفخَتين :

ـ آووووغ .. آووووغ .. بس بس يا خالة ..

لن تُسكتني سوى قُدرة الله ، أو أن تَأتوا لي بتلكَ التي تَقول لي :

ـ شُو يا يُمَّة ! .. أنتَ جيعان يا بعد عُمري ..

قَليل منَ الكَلمات و التَبسُم و الثَرثرة ، و وجه جميل كالنور يُسعدُ قَلبي ، اعتدتُ عليهَا في كُل مسيرة حَياتي ، حتى فندتُ نظَريات فَلسفية قَذرة استَبدلها بعض البَشر للتَعويض ، كَأن تُعوض صَوتَ أمكَ بصوت فَيروز ، أو رَائحتها بعبق الياسَمين ، أو ملامحها بالجُلوس على ضفاف قَاسيون ، أو طيبتها بزوجة حَنون !! ..

حنون !! .. إنهُ جُنون ..

مَوهُومينَ بالغُبار و الضَباب ، نُلقي بالنُور خَلفَ قُلوبنا و نَلهثُ كبنات آوى نَقتاتُ على الجُثَث المُتفسخة بحُجة

التَغيير ، و لكن كُنتُ أُؤمنُ بالتَغيير عندما تَأتي من بَعيد لتُنقذني من السجن الانفرادي تَحتَ رَائحة البصل و الثُوم ، كَانت تَمشي بصُعوبة ، قد خَرجت من تَحت ماء الاستحمام للتَو ، بشَعر مُبتَل و رَائحة الصَابون الغَار و شَامبو البلسم بجوز الهند ، و عطر خَفيف و أسنَان كَحبات اللؤلؤ المَنثور ، آه و ألفُ آه مَا هَذا الكمال الذي يطوفُ حَول بُؤبؤ عَينَيها كَأنهَا مَجرة دَرب التَبانة يَصطفيهَا اللهُ من بَين المَجرات .. تختطفني الحَبيبة من قَفص خَالتي بقوة كَأنَ الغَضَب عكر صَفوَ صَباحهَا :

ـ يلا يُمَّة ، يلا يا حَبيبي ..

أتشَردقُ بمَخاط أنفي الذي سَال عن غَير محَض إرادَتي ، تَسحبُ مَنديل بجانب سَريرهَا لتَمسح لَي السَائل المَالح الذي آذاني ، و تُريح تَعبي على سَريرهَا الذي بُدلت شَراشفهُ ، تُفكَكُ عُقد الأكفان بروية ، تَتفتحُ يَداي و سَاقاي كَزهَرة بابونج خَرجَ منهَا رَائحة بول :

ـ هَا . هَا . هَا . شَاخ عَلى حَالك يا بعد عُمري !! ..

تَركتني أتنفسُ نور الشَمس التَي تَدلت بُكل مَحاسنهَا ، ، ورَاحت تُجففُ شَعرها بمنشَفة بَيضَاء نَقية كنقاء وَجههَا ، لم تُفلت نَظراتهَا من حَركَاتي البَطيئة ، تَبتَسم فَأفهمُ مَا يَدورُ في جَوفهَا ، أُخرجُ أصواتاً فَوضَوية من فَمي فتَتَسع ابتسَامتهَا ، كَولي عَهد لابن مَلكة أتوسطُ سَريرهَا ، تَجلسُ بَجَانبي و تُمشَطُ شَعرهَا بمشَط أسَود ، كَأنهُ الحَرير يتشَابك مع الضَوء فيُنتجُ مَاساً تتهافت لهُ أرواح العَاشقين ، تَعقدُ شَعرهَا خَلفَ كتفها بجديلةٍ ناعمة لتَشنُقَ استرسالهُ ، تَحملُ ثقلي لتَرى بقايا حَبلي السري الطَري ، قد عَقدتهُ من أخرجتني من رحَمها بَخيط أبيض طبي كَي تُوقف سَيلانه ، يخَترق صَفوهَا صَوت جَدتي :

ـ شُو يُمَّة يا هَيام ! ، ما بدك نَحممو !

كَانَ المَاءُ يَخلعُ جَواربَ بُرودته فَوقَ (البُوتوكاز) ، و يَرتَدي حَرارته المُعاكسَة في الحمَام ، يُجَاورُ إنَاء الغُسل لَوحٌ من صَابون غَار مُضلع ، لهُ زوايا حَادة جداً كَأنهَا زوَايا لَوح زُجَاج ، و ليفة خَاصَة مَصنوعة من قُطن سُهول الشمَال السُوري ، كُتبَ تَحتهَا بالخَط الأَحمر العَريض : قُطن طبي ، هَكذا هي الحَياة تَمَاماً ، تَفركُ قَلبكَ بصَابون زواياهُ كحافةِ خنجر و تُجففُ مواجعَكَ بقُطن الإيمان الذي قَطفوهُ من مزَاد الكُتُب السمَاوية ..

أنتَ مَزادٌ في كَوكب ينهشُكَ منذُ الصغر و يُضمدُ وَحشيتكَ بمُعقم القَدر. و رُوحكَ ، آهٍ منهَا و من عَويلهَا .. !!

تلكَ الروح ذَات الأبواب المُشرعة لكُل ما هُو مُؤلم كَأنهَا مَسلخٌ لمَواشي الجوارح ، تلجُ إليهَا العواطف سَليمة و تَخرجُ منهَا مَذبوحة تَتَقاطرُ فَجيعةً لتَسحب رؤوسهَا المَبتورة إلى منَابر الحلقوم ، هُنَاكَ تُعقدُ حُروب الردة

بَينَ الحَياة و المَوت ، لتَقفَ على مَوارب الروح و تَكتُب :

ـ يُمَّة .. المُستَقرة في مَذابح الروح التي لن تَعود ..

لن يُسَفكَ دَمُكَ بمجرد شَرطة سَكين أو رَصَاصَة تَستَقرُ بَينَ عظَام قَفصكَ الصَدري ، هُناكَ دمَاء كَبحر أشلاء تَسيلُ في الوَريد عَويلاً مَدى الحَياة كَأن تَفقد :

ـ يُمَّة ..

لتموتَ عَزاءً و أنتَ لا زلتَ على قَيد الحَياة ، سَتلتَبسُ عَليكَ المَباهج مع المَواجع أمَامَ كُل نَجمة تُذكرُكَ بهَا ، لأنَكَ في الحَقيقة أنتَ نُورهَا الذي انطفأ منذُ أن نَبتَ لهَا اسمٌ بَينَ القبور ، كَيفَ لشهاب يَلمعُ في مَمَرات القلوب أن يُزجَّ به ذَاتَ قَدر في ظُلمَات اللحود !! ..

مُعَادَلات قَد تَورطتْ في مَتاهَات عَقلي أقفُ أمَامهَا شَيباً و أُحَاولُ أن أُقنعهَا بأنَ الله اختارهَا لرحَابه ! ..

وَنحنُ يا الله ! ، لمن اختَرتنا ! ،رُبمَا لأَحبابه ،عَزائي الوَحيد هُو قول النبي مُحمد صَلى الله عَليه و على آله و صَحبه و سَلم :

ـ يُحشر المَرء مع من أحب ! ..

أسحبُ عدم الرضَى إلى القضَاء خلسَة في رحَاب الرحمن و كَلام العَدنان ، و أَحملُ جُثَةَ جَزعي إلى مَغسَل الرضَى كَي أَعود مَغفوراً لي كمَا وَلدتني أُمي ، و هَا هي قد أنجبتني :

ـ أي يُمَّة بدي أَحممو ..

مُرهقة من هَزة الطَلق لَيلة أمس ، تُسعفها الفَرحة لتُقنعَ قَلبهَا بأنهَا قَوية ، تَصطادُهَا عَينَاي بالبَهجة ، لا أعلم من هُوَ أشَدُ فَرحة ! ، أَهيَ أم أنَا ..

أنقَذني اللهُ من أرحَام سَابقة لأَهبُطَ نَزيلاً في مُستَقر رَحمهَا و أرتوي من سَلسَبيل دفئهَا ، كَانتَ تَقتربُ إليَّ و كَانَ قَلبي يَتعثَرُ بهَا أكثر و يَزدادُ لهفةً و شَغفاً ، كُنتُ مَأخوذاً بهَا إلى مَا بعدَ الحُب ، لتُسَلمني بَعد سَبع سَاعَات

إلى الجَلادَات ، يا إلهَي إلى أينَ تَأخُذُ بي هَذه المَرأة العَجوز ..

أُنثى يَزيدُ سنهَا خَمسينَ عَاماً تُشبهُ مُدرجَات حوران ، وَ وشم بثلاث نُقط تَحتَ شفتهَا السُفلى ، رَائحة مَواشي و سجَائر من النَوع الرديء و غَفوة حَليب بَقر ، يَدفُنهَا ثَوب أسود من قمَة رَأسهَا إلى أظَافر قدَمَيهَا ، و تسترُ شَعرهَا بكُوفية فلسطينية ، فَمهُا كحبة لَوز قَد حُسر تَحتَ الطَبقة الجلدية لشفتَيهَا حُمرةً كَدم الغُزلان البَرية من رَأى طَلتهَا عَشقهَا و أَحبَ صَلاحهَا ، قَصيرة غَضَة طَريَة شَهية على الفطرة السَليمة التي لم تُلوثهَا الأرصدة البنكية و لا الشَاليهَات البَحرية و لا الحَفلات الوَهمية ، شَدت الرحَال إلى بَيت الله مَرتَين ، في الأَولى راكبة على الجمال و في الثَانية على حَافلة ، لتَعودَ إلى دَيارهَا قد غَفر الله لهَا ما بَذرتهُ من أموال على السَجائر و مَا تَقدم و تَأخر من ذَنبهَا..

لم يَكُن عندها ذُنوب سوى ما تَحرقهُ من أموال على سيجارة تَتكأُ عَليهَا بعَد أن تَحلب بقراتهَا عَصراً على كُوب من الشَاي و عُلبة بسكويت مَحشوة بحلقوم ، إنهَا جَدتي أُمها لوَالدتي ، ذَاكَ الزمانُ الذي لم تَكُن فيه المرأة تُلقب بأُنثى بل كَانت عن ألف رَجُل بقوتهَا و جَبروتهَا و قَسوة أهل الدُنَيا عَليهَا ..

بكف مُتورمة قَد شمرت سَاعديها ، يَظهرُ على المعصَمين أسَاور ذَهب ثَقيلة ، و أَصابع بَضَة صَغيرة كَانت تَحلبُ بهَا أثداء البَقَر و تَحملُ بهَا المَاء إلى الدَجاج و تَجلبُ الحَطب من البيادر و تَحصَدُ القمح في كُل نهَاية صَيف ، أصَابع لا تَعرف طلاء الأظَافر و لا كريمَات النيفيا و لا صَالونات المانيكير و البيديكير ، أصَابع كَانت تَرقُ العَجين و تَخبزهُ على الصَاج لتُطعمَ به أُمي ..هيَ جَدتي أُم اليتامَى ، أُم وَالدتي اليتيمة ، و أنَا الذي انحدرتُ من هَذه السُلالة اليَتيمة..

تَحملُني الجَدة بكفَيهَا ، عَرقٌ يَتَصببُ من جَبينهَا كَرائحة الزَعتر البَري و بُخَار فَطَائر الكشك بالطَماطم مع اللحمة المدهُون بالسَمن البلدي الأصيل ، سَعيدة الجَدة بحفَيدهَا الثَاني من ابنتهَا المُدللة ، كَأنهَا هي من كَانت حُبلى بي ، تَسيرُ ببُطء على أطراف شَقاء الحَياة التي أُلزمت على كَاهلها ، كَيف لهَا أن تَسرقني من نُور أُمي ! ، إلى أين يا تُرى ؟

إلى ظُلمات الحمَّام ، يا سَلام! و ضَباب البُخَار السَاخن ، و عَذاب رَغوة الصَابون التي تُبكي العيون ، و عَمليات الإغراق في دولاب المَاء المغلي ، و مَهارات الفَرك و الدَعك التي لا يُطَيقهَا الكَبار ، كَانت تَسيرُ الجَدة بي في الممر الضَيق ، و النُور يتَلاشَى شَيئاً فَشَيئاً ، كَأنَني أَدخُلُ إلى كَهف تَلتهمهُ العَتمة ، أَنجدتني رَائحة القرفة و الجَوز المُقَشَر و الخُبز المُحلى و حَلوى الخَلاص التي تَتأججُ من المَطبخ الذي يُجاورُ الصَالة ، انقطع قَلبي خَوفاً حَتى كدتُ أن أُنَادي بهَا : يُمَّاااااااااا وينك !! ..

كأنمَا أستَيقظُ من كَابوسٍ يتَربصُ بي كُلَ لَيلة ..

يتَجسسُ عَليَّ خلفَ سَواري الوَسَائد ، مثلَ كمين سَيشتعلُ فتَيلهُ على مَقرُبة من سَريري ، أرتَجفُ يُتماً من ذَاكَ الضَباب ، أَتخفى بغطاء النَوم و الطفلُ لا زَال يَصرُخ :

ـ يُمَّاااااااااا وينك !! ..

رائحة بُكاء الصَبي تَتَسربُ إلى أُذُني ، تَسيلُ دموعهُ من مآقي الذَاكرة ، أُحاولُ أن أُجففَ نَزفهُ بمنَاديل الكذب ، و لكن صَوتهُ شَجَّ طَبلة أُذُني الوسطى وأرهَقني وَقعُ التَفاصيل المُتقدة بينَ أضلاع المَاضي ، كيف سَأشرحُ لطفل بلَّلهُ الحُزن و سنهُ ثمان سَاعاتٍ يعتريهِ خوفٌ بأن أمهُ التي غادرتهُ لم و لن تعود !! ..

في حضرة الفَقد تخرجُ الكَلمات لتوها طَازجة من تنور الوجع ، نتباكى و نتكاذب على الواقع ظَناً منَا بأنَ الحِداد سيُعيد لنا من رحلوا ، لا أَرصفة هُنا و لا مَحطاتٍ و لا إشَارات مُرور ، فَأنتَ وَحدكَ من تُقلُ عَربةَ الحياة

ووحدكَ من تَرتكبُ الحوادث القَدرية و وَحدكَ من تُلقى كجثة هامدة على أُوتوستراد النجاة ، جُثَة تُشبهُكَ عَليهَا بَصمات جَرائمكَ و بطاقات تأمين دَفنكَ في مَقابر تليقُ بخيبتك ، لا تتوقع أن يُعلن عن موتك طياً تحت التُراب ، فكم من أشباه بشر يسيرون على الأَرض و جُثَثُهم قد أفناها الفراق ..

حَاولتُ مراراً و تكراراً أن أُقنعهُ بأن يعتني بنفسهِ و قَلبه ، رفعتهُ في الحَشَى مَكانَ المُلوك و أجلستهُ على عَرش الأرواح و قُلتُ لهُ :

ـ اسمع بني ، أو بلُغة أصَح اسَمع يا أنَا ، أيهُا الطفل اليتيمُ إن حَالي من حَالكَ ، و أُقسمُ لكَ لو أنَني أستَطيع إعادة يُمَّة لأعدتُهَا لكَ ، فَالوَجعُ وَاحد يا أنَا ..

كَانَ يَستمعُ إليَّ و لا يَفهم شَيئاً ، أنجديني يَمَّة ، مَا هي اللغُة التي كُنتِ تَتَحدَثين بها مع هَذا الصبي !! ..

لم تَكُن تَستمعُ إليَّ أبداً ، كَانت تَغفو قَليلاً على السَرير مُجهدة من الطَلق و الخَلاص ، تُغمضُ عَينَيهَا لعَلهَا تَتَورطُ بالنَوم ، و لكنَ المشهد الآخَر كانَ أشَدُ يَقَظة .. مَشهد البُخَار المُتَأجج من إنَاء الغُسل ، و جَدتان و خَالة يتَرقبنَ مجيئي و مطاردة رَاحتي ، وُجوهٌ شَاحبةٌ عكَّر مَلامحهَا الضَباب ، و ضَوء باهَتٌ مُعلقٌ فَوقَ الرُؤوس يتَشاجرُ مع ضيق المكَان ، كَانت مسَاحةً أقربُ إلى مَساحة قَبر مُضَلع ، السيراميك مُعتقٌ و مورق يَتقاطرُ مَاءً من الحَرارة المُلتَهبة ، لا هواء يَجمعُنَا هُنَا سوى رَائحة جَدتي البَغدادية التي حَوت المَكان بغَفوة خُبز التَنور و كَعك الكليجة ، و خُيوطٌ مُتشَابكة و قطع قُماش تُخاطُ على آلة الحَياكة التي كَانت تُسَاعد بهَا جَدي على قَسوة الدُنَيا ، أنَجبت لهُ عَشرة من الذُكور و كَان ختامُها مسك بَل أُنثى كَفلقة القَمر ألقوا عَليهَا اسماً هي أعظم منهُ : نُسور ، و لكنهَا حمَامة بَيضَاء بل كَقطعة كيك

مُغطاة بالكريمة البَيضَاء و بَصيص عَسل يَتدلَى من جَنباتهَا :

ـ شَلحيه يا أُم سُلطان ..

هُنَا التَجريد لا يَكون برغبة منكَ ، هُنَاك الحَياء أن تَراكَ النسوة عُمراً بأكمله عَارياً و لا تَرى منهَا شَيئاً ، لأنهَا أُمكَ أو جَدتكَ أو مُربيتكَ هي التي تَعرفُ مكامن الخَجل و ما تَسترهُ العُيوب ..

هُوووش عَيب ..

ـ خُذيه من إيدي يا أُم نَبيل ..

أُشَاهدُ مصرعي أمامَ عَيني ، و أَكُفٌ تمردت على العُتمة تُجردني من صمتي ، بأنفة الطَفل الذي أنَجبتهُ حوران أَصرخُ بما أمدني الله من حبر :

ـ وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

أيادي تسَاوت بالجَناية و خَيبات الأمل ، أُمهَات تَعيسَات جَعلَ منهُن الشَقاء صخوراً غلاظ شداد عجاف ، رُبمَا زُوّجن مُرغمات عن أُنوفهن خَوفاً من العُنوسَة ، أو

تَجارة الرجال للرجَال فيما يُعرف بسُوق المُهور ، كَانَ يَبدو القَهر على تَجاعيدهن ، يَهرُبنَ من الأسرة قُبيل الفَجر إلى الحُقول و جَلب المَاء و تَنظيف البيوت و الطَهي و غَيرهَا من مَهام شَاقة ، حَتى مزقتهُن لعنة الحَياة ، يا للعنة !! ..

كُنتُ مُخضباً بمَائهَا ، أُجيدُ السباحة في بطنهَا لأقطع الرَحمَ وَحدي ذَهاباً و إياباً لا أخشَى غَرقاً و لا جَزعاً و لا نَجاةً ، في أحشَاء لحَمها أغطسُ كذرة وقعت في مُحيط نُور لا تَحدهُ شَواطئ و لا تُسورهُ حُدود ، انكفأتُ من صَبرهَا بعد أَشهُر لأقعَ بين عيون لهَا صلة قَرابة مع :

يُمَّة ..

أقيسُ غيابي عنهَا بعَدَد شَهقات العَويل ، بَيني و بَينهَا صَالة و مَطبخ و ممراتٌ وجدار حمَّام و ثَلاثُ نسَاء ، و اليَوم بَينهَا و بَيني قَارة و دولة و قَبر و غياب ، هَل رَأيتَ ملحَ القَلم كَيف يرش رُذاذهُ على الوَجع ، إنهُ

مقياس الغياب الذي لا يَعرفُهُ أحد سوى من تَكالبت عَليه الأقدار و فقدَ أُماً كـــ : يُمَّة ..

يُسَكبُ المَاء السَاخن على جسدي و تَحمرُ مسَامات جلدي ، كَانت السُرعة في الغُسل مَا فوق المعقول ، لأنَهُ أُغمي عَليَّ مَرتَين لَيس من المَاء بَل من روائح الحُقول التي تُرعى فيهَا الأبقار و الثيران و دُخان خُبز التَنور الذي سَدَّ مَنافَذَ الهَواء المُتصَاعدة إلى أنفي ، و لو بَقيت المسألة على هَذه الحَالة لصَمتُّ موتاً ، و لكن الأثواب القَديمة التي عَشَعشَت بهَا عُطونَة السجَائر و التبغ الرديء ، بَينَ سَكبٍ للمَاء و تَلييف بصَابون الغَار لتتمادى الرَغوة عَلى عَيني ، هُنا أفقدُ ذَاتي و الهواء الطَلق ..

عندما يُمررُ لي خَيالي نصاً فيه كَلمة فقد ألتقي بأحزان الكون برُمتهَا ، أنتصبُ مع جُموع المُعزى بهم ، أُعزي مَشَاعري المُتهالكة :

ـ يا أيتُهَا النفس الوَحيدة عظمَ اللهُ أجرك بفقد يُمَّة .

تُجففُ الجَدات جَسداً مسَلوباً منهُ حُرية الرأي ، هو الرأي الآخَر ولا شئ غيره!! جسداً لم يَعُد بحَاجة إلى تَأشيرة لدُخوله ، جسداً عَارٍ يستطيع المَرء التنقُّل به من غَير أية تَذاكر ، جسداً كَمَدينة في أواخر الحَرب العَالمية الثَّانية ، حَلَ به الخَراب مُذ أن أَعلنت تلكَ القَابلة بأنَ الحرب قد انتهَت :

ـ مُبارك جَاءكُم صَبي ..

تُجفَف أعضَائي بمنَاشف الحَياة ، و لكنُ خَلفَ هَذا القَفص الصدري هُنَاكَ قَلب يَنبضُ بالثَانية الوَاحدة مَرتين ، مَرة لنفسه و أُخرى لَغيره ، نَبضَات لا تَعرفُ جينات النسيان و لا مُهلكَات الزهايمر و لا غَدر مَن اجتاحوا هَذا القَلب ، نَبضَات مُدوية كَأحداث يَوم القيامة تَخافُ كُل من حَولهَا و حتى تَخافُ من السمَاء التي سَتخطُف :

يُمَّة ..

مُحرجةٌ هي الكَلمات كَما الغُربة التي تَعيشُ بي مُذ أن بَدأتُ أُفتش عنهَا في عُيون الأُمهَات ، و كَسَت العَاطفة جراحاً حتى ابتَلت بالدمَاء البَاردة ، أقفُ كُل صَباح في مَحطَة الميترو لأَبحَث عن مشاهد تُذكَرني بهَا ، أنَا لم أنسَ رَائحَتهَا أبداً ، و لكنَ شَتات الصُور اغتالت ذاكَ الفتَى المُفعم بالبرَاءة ، تَمردت ألسنة من حَولهَا و كَشَفت المستُور و رَاحت فراسَتهُم تنظرُ بي و بهَا :

ـ هَذا الطفل يُشبهُك يا هيام ..

هَا أنَا أُدققُ في وَجهي عَبر مرآة الحَياة ، أُحاولُ أن أُقنع ذَاتي بأنَ المَلائكة لا تُشبهُ الشَياطين ، و أنهَا أُنثى قد خُلقت من نُور و أنَا الذي أُخرجتُ من فُرن النيران ..

نيرانٌ مُرتبكة تَلتهُم أَحشَائي كُلمَا جَاء نُورهَا يَحملُ طفلاً تَدعي بأنهُ أنا ، هَذا ليسَ أنا يا يُمَّة ! ، هَذا أنتِ يا مُهجة الحَياة ، أستَحلفك بالذي استوى عَلى عَرشه و في السمَاء غَيبهُ و في الأرض ذكرهُ بأن تُنحيه جَانباً فَلا أُريدُ رُؤياه ..

يُمَّة لَيست هُنَا لتَستمع إلى مَواجعكَ يا هَذا !! ..

أينَ هيَ إذاً ..

إنهَا تَغفو على سَريرهَا بجسد قُطفَ منهُ ثَمرة مُذكرة يُطلقونَ عَليهَا : أنتَ !! ..

هَل تَآمرت عَليَّ الأرحَامُ و الذَاكرة و التَاريخ و الحَياة و الآخرة ! .. و يُمَّة إذاً مَا هُوَ دَورهَا ؟ ..

إنهَا مثلُكَ ضَحية مَوت تَمكنت في ذَاكرتكَ ، كَمَا أنتَ ضَحية حَياة قَد دُفنت مَعها ، و التهَما الغياب كما التهمتكَ ذكرى العَذاب ، هي تحيى فيك و أنت تحيى بهَا كأنما هو الحُلول!!..

أُخَاطبُهَا من سَطر بَعيد و يعبر قَلمي يَرسُمُ تَفاصيل حَنَانهَا بالعبارات مُوهماً نَفسي بأنهَا سَتقرأُ مَا حَل بَي بَعدهَا ، حتى أنَني اتَخذتُ من صَوتها مَدفناً أصرخُ بقمة يُتمي :

ـ هَل وجدتِ مَا وَعدكِ رَبكِ خَيراً ..

أخشَى من أن يتَسرب من ثُقوب إيمَاني الشك و الريب ، أخشَى من الله أن يَسَألني لمَ تَسألُ مَا ليسَ لكَ به علم ، أخشَى من وَحشَة اللحُود أن تَنقلب أقلامي سياطاً أُجلدُ بهَا حتى الفناء ، أخشَى من أن يوجه لي سُؤال مِن عند مَن لا تَضيع عندهُ الودائع و لا تتبخَر في رحَاب كَرمه يُمة :

ـ هَل أعطَيتهَا ما وَعدتها بِه خَيراً ..

لا أَحد يُجيبني أبداً يا يُمَّة ، و لا ذَاكَ الصَبي الذي لطالما قَالوا لي بأنهُ أنَا ، و لا حَتى الله ، أُضمدُ إيمَاني المُتآكل بالشَك و الرَيب بقول من تَحجُ إليه الأفئدة مَولاي رَسول الله صَلى الله عَليه و سَلم :

ـ أنَا عند ظَن عَبدي بي ..

و لكن يَا رَسول الله أنا لا أظن ، مُتَيقن بأنهَا في نَعيم مُقيم إلى أن يَرث الله الأَرضَ و من عَليهَا ، حَتى لم أعُد أُفرق بَينَ الشَك و اليَقين ، و لكن أنَا أؤمن بهَا و لا أُشُركُ بحُبهَا أحداً ..

كَانت ثياب ذَاكَ الطَفل تَميلُ إلى الزُرقة السمَاوية ، زَيت الزَيتون بجَانب هَذه القطَع الجَديدة ، مبخرة صَغيرة تَشنقُ أشَباحَ الحُسَاد من النسَاء المَخنوقات و تَجلبُ نُور الرَحمن ليسري بطيبه إلى زَوَايا البَيت ، و مَنشفة صَغيرة مُبتَلة بالعطر لهَا جَاذبية النيفيا ، أُحملُ إلى غُرفة أُمي مثل حبة شُوكولا مَلفوفة بقَالب كَرتوني مَكسوٍ بكيس بلاسَتيكي خَوفاً من أن أُصيبَ بَرداً ، تَجلسُ بجَانب أُمي ابنة عَمتهَا الصَديقة العَزيزة على قَلبهَا ، لَقد حَمَلهَا الفَرح بَاكراً لتَكونَ أول المُهنئين بقدومي ، على مَا يَبدو بأنَ منَزلهَا قَريب من هُنَا ، تَضعُ بجَانَبهَا هَدية المَولود الجَديد ، عَلى مَا يَبدو بأنَ أهل هَذا البلد مُولعونَ بالحَلوى ، رُبمَا هُوَ النَقص و الجَفاف العَاطفي للفَرح و السُرور ، كَانت مَسرورة جداً ، يا إلهى مَا هَذا ..

عَينَان وَاسعتان بشُحنة العنُوسة ، و حجابٌ مَعقود خَلفَ جدائل الرأس ، جدائل تدلَّت للأمَام تتخللُها لَمعةٌ برائحة الغار القوية ، قَد شدت عليهما الوثاق كي لا تُنزع هَيبة

الجَديلة ، شَفتان وَاسعتان عَليهَما بَقايا حُمرة أو طلاء تُوت ، و رُبمَا إن لم تَخُني الذَاكرة هُنَاك سنَان مَكسوران ، يا للهَول!! :

ـ يا ما شَاء الله ، يا مَا شَاء الله ، تَفرحي فيه يا دَادا ..

مُبتسمةٌ قَمري لي ، و لكن قَلبي مُمتلئ منهَا كيَف تَركتني لعصابة النسَاء ، خَمدت النارُ في صدَري ذُو العظام الرَقيقة ، سَحبت كُلَ غَيظي من الفراق بنظرة وَاحدة ، كَانت سَاحرة جداً ، أَخافُهَا و أَخافُ منهَا و أخَافُ عَليهَا حَتى أُصبتُ بالخَوف إلى يَومي هَذا :

ـ الله يَبارك فيك يا دَادا و إن شَاء الله نَفرح فيك ، و أشُوفك لابسة الأبيض يا حَبيبتي ..

تَبدلَ وَجه صَديقتهَا و أخذَت نَفساً عَميقاً و رتبت من جَلستهَا و لكَأنهَا تشَتاقُ لذلك اليَوم ..

تُحملُ حَلوى المَولد الجَديد على صينية مُستَديرة ، و بجَانبهَا كَأس من القرفة الذي تطوفُ على سطحهِ مُكسرات الجوز البَلدي ..

تحمُّل ، كَلمةٌ أحملُهَا معي أينما اتجه الوَجع ، كمَا أَحملُ طفلاً أنكرهُ تَارةً و أُشفقُ عَليه تَارةً أخرى ، أنَا أَعلمُ بأنَ الذَنب ليسَ بذَنبه و لا بذنبي ، و لكن يُقسَّم الألم على حَجم المَحبة ، هُنَاك تُرفع الأقلام و تُجفُ الصُحف لأنَ حَجم هَذا البُركان هُوَ أَعظمُ وَجعاً ، كُنتُ و لا زَلتُ أعتَقدُ بأنَ المَاضَي مُجرد ذاكَرة تَمرُ بكَ كُلمَا زادَ وزن سنِّك ، عندما أَخلو بهَذا اللهَب من المَاضي أُشوى على فَحم هَادئ يَسلخُ رَاحتي و يُؤرقُ مَضجعي ..

كم من حَفل شواء أُقيمت على شَرف الذَاكرة ، جميع المَدعوين تراهم وقد كستهُم السَعادة ، يحَتسون نَخبَ وُجودهم في أَحشَائي ، و يَتضَاحَكونَ و يتَسامَرونَ على حسَاب رَاحتي ..

أُريدُ أن أَنام أرجوكم !! ..

يُسعفُني البُكاء في كُل ثلث أخير من الليل ، أَجدُ ضَالتي على أعتَاب الله ، أُمرغُ أنفي بالسُجود سَاعات طوال ، أُناجيه بجَاه كُل من عَندهُ جَاه ، أستَحضرُ أولياء الله من صَاحبته إلى أحبته ، أصيح المَدد يا رَسولَ الله أدرك كُربتي ، و أغرقُ في أرواح عيال الله مُتمسكاً بنَوافذ الرفاعي و النقَشبندي و الشَاذُلي و الرواس و البدوي و اللحفي ..

يُغمى عَلى قَلبي حينَ تَظهرُ أُبهَة الأولياء ، أُشَاهدُ سُبحَتهَا مُدلاة أمَامَ شَاهدة قَبرهَا ، تُحاولُ أصَابعي مَس حَباتهَا المئوية ، يجَمعُهَا خَيطُ عَريض و تُفرقُني هَذه الكَوابيس التي جَعلتني أزور أضرحة أهل الله و أُشعلُ شُموع الغَوث و أتوسَد أعتاب المَجانين ..

تُقامُ الحضرة في مَجالس الذكر و يُضَربُ بالدُفوف و تَغيبُ الأذهَان بمدح النَبي العَدنان ، و تَخلو النَفس تُحركُ صَفاءَ الوَجد ليرتَطمَ القَلبُ مُوحداً للذات النُورانية ..

تُمسكني حَنينُ من كَفي اليُمنى ، تَرتدي ثَوب صَلاتهَا الأبيض الذي قَدمتهُ لهَا في عيد يوم الأُم ، ثَوباً لم أَعرفهُ في البداية لأنه كَان أَشدُ نصاعاً و بَهجةً ، تَدور حَلقة الذكر تَحتَ قُبة الزاوية النقشبندية في الزَاوية الدَرويشية خلف باب (جَابية) في دمشق العَتيقة ، و يتَطاير البَخور من كُل حَدب و صَوب مع أصوات الذَاكَرين :

ـ الله .. الله .. الله .. الله ..

تُجذبُ أعصَابي على هبوب المَدح ، و تُشَدُ أوتار قَلبي في مُوسيقى الله ، و تُصفدُ عَفاريت الذاكرة خَلفَ نَوافذ الزَاوية المُتشَابكة بالأغَلال النُحاسية ، تتربعُ على الشُباكِ المِفصلي بينَ الرجال و النسَاء شُموع الذاكرات المُستغيثات بأولياء الله ..

شُموعٌ تَنصَهرُ بمُكابرة حَرارة النَار مع صَوت الذاكرين ليهتز فتيلهُ بضَرب الدُفوف و حَركة المُريد و صَمت النسَاء البَاكَياتَ خَلفَ الستار ..

أجرُّ أشلاءَ فَزعي على رَاحلة سَيري مَعها ، تُمسكُ بأصَابعي و أنَا مُتشَبثٌ بهَا خَوفاً من السُقوط في دوامَة أولياء الله كَزوبعة تُحَاكُ كَلمَا ارتَفعَ صَوت السَمَاء ، كُلنَا نَدورُ بإشارة من صَاحب البشَارة ، يبتَسمُ مولانَا شُكري اللحفي لحَنين ..

كَيفَ يَعرفُهَا ! ، و هَل التَقى بهَا ! ، انقبضَ قَلبي بقوة تُعادلُ كُل مَا خَلقهُ اللهُ من حَنين ، يُلقي لهَا بشَارة من وَحي الإشَارة:

ـ أن تَعالي يا بنيّتي ..

يُفزعُني ذَاكَ الطفلُ مَرة أُخرى ، لم ألحَظ وجوده ، تَحملهُ بسَاعدهَا الأيسَر ، شَكرتُ الله بأنَني أمسكُهَا من الجَانب الأيمن ، لأنَ النبي يُحبُ التَيمُن في الأُمور كُلهَا ، مُذ أن أصبح اليَمينُ مُتَطرفاً كَرهتُ جَميع الاتجاهَات إلا قبلة وَاحدة ألا و هي المحراب الذي يَرسو بي على قَبر :

ـ يُمَّة ..

تَقتَربُ إلى مَولانَا بنُور يَعجُ في وَجههَا من كُل تَفاصيل وَجدهَا ، و تُشرقُ أكثر و أَكثر كلمَا دَنت إليه ، تُصادفُني الأُمنيات بالغيرة من ذَاكَ الشَيخ ، لَيخَلع عَباءتهُ أرضاً و نَجلسُ أمَامَ الإمام صَمتاً و يَقرأُ فوقَ رُؤوسنَا بَصوت جَهور قُرآناً كَأنَني أُول مَرة أستمعُ لهذه الآية :

ـ إنمَا يُريدُ الله ليُذهبَ عنكُم الرجسَ أهلَ البيت و يُطَهرَكُم تَطهيراً ..

لتَزولَ غمَامَة النُور في وَحي السُرور و تَختَفي حَنين فَجأة كَأنهَا حُلم جمَيل لَذة للنَاظرين و بَلسماً للمُتألمين ، أنجدينَا يا حَنين ، يا أُمَ اليَتَامى ، يا قَلباً تَوسَدَ فضلك ، يا شَوقَ الصَالحين ..

تُرفعُ ستَائر النُور بتَوقف ضَرب جُلود الطُبول و صَوت بَحيح النَحيب و صَخب اهتزاز الذكر ، و لتَتَوقف الحَضرة و تغيب الفكرة ..

أنصتُ إلى مصَارعهم و شَهيقهم الذي يَخرجُ من صُدورهم مثلَ جانٍّ كانَ مُتربعاً على قُلوبهم ، و يَقرأُ القَارئ مَرةً أُخرى :

ـ إنمَا يُريدُ الله ليُذهبَ عنكُم الرجسَ أهلَ البيت و يُطَهرَكُم تَطهيراً ..

كَانَ البيتُ بسَيطاً جداً ، مُفرغاً من مُوضَة الكنب ، تُسَّورُ زَوَايا جُدرانه (ديوانية) يتكأُ عَليهَا أهَل البيت ، و يجَلسنَ نسَاء الحَي يَتَباحثنَ عن آخر مَا وَصلت إليه التَطورات في الحَبل و الطَبيخ و الزوَاج و الطَلاق .. و عَينَاي الصغيرتان لا تُفارقا مَلامحهَا المَلائكية ..

يُمَّة يَا كُلَ الفُؤاد و جنتي و ناري ، تُضَاحكُ من يُضَاحكُهَا و تُربِّتُ على من ترى حُزنهُ فَيهَا .

تَنزلقُ الأُمنيات كُلما استنطقنا الذاكرة ..

أُحبُهَا بقدر بُغضي للذاكرة ، بل بَقدر كُرهي لثياب ذَاكَ الطفل الضَيقة ، كَانوا يَتوقَعونَ بأنَ يكونَ وَزني مَا تَحتَ المَعقول ، اثنان كيلو أو أكثر بَقليل ، و لكن الشَماتة فَاقت كُلَ مَعقول ، أربعة كيلو و نصف ، قَالت لي ذاتَ ليلة :

ـ هَذا أنتَ !! ..

ألبوم من الصُور يَفوق مَا غَفى على سَرير الذَاكرة ، و لكن ذاكرتي تَختلف عن غَيرهَا ، ذَاكرة تَتَناول المُنبهَات بشَراهَة كَي لا تسهو ، كُنتُ و لا زلتُ أنَا ضَحية المَاضي ، حَيثُ تُقلب الصُور أمَامي بكُل تَمعُن ، يَزدادُ خَوفي كُلما طَوت صَفحة و أظهرت التي تَليهَا ، أفقدُ القُدرة في حَال رُؤية أول صُورة لي ، أعرفُ هَذا المَشهد كَما أعلمُ في أي يَوم فقدُتهَا ، مُجردٌ من كَافَة ثَيابي ، تَتَجهُ إلى ثَديي المُترنحتان عيون الضيوف ، كَان سني وَقتهَا تَسع سَاعات بالضبط تَعبرُني الغَرابة

حَافية تَمشي على مَلامح من حَولي ، شُوهدَ على وَجه يُمَّة الغَضب :

ـ لَبسيه بالغُرفة الثَانية يا أمينة ..

هَل هَذا البَلد يُؤمنونَ بالعَين و الحَسَد أكثر من إيمَانهم بالله ، لأنَ ذكرَ الله هُنَا مُغَيب ، لا يُسمع لهُ صَوتٌ إلا عَبر مُكَبرات الأذان في الصَلوات الخَمس ، يَتَهافَتونَ زحفاً إلى بيوت الله في كُل يَوم جُمعة ، لأنَ من ذَهب إلى صَلاة الجُمعة تَكتمل رُجولتهُ حتى لو كَانَ صَغيراً ..

كنتُ أصطفي من كَلام الرحمن قولهُ تَعالى :

ـ رَبي ارحمهُمَا كما رَبياني صَغيراً ..

اليَوم شُرفة وَاحدة مُطلة على الذُهول التي أفقدتني إياهُم ، أقفُ بعُكَاز وَجعي أمَامَ جَثامين ذكراهُم لأدعوا لهُم كُلما هَوت جَبهتي نَحوَ قبلة الله بمَا كُنتُ أقرأهُ سَابقاً :

ـ رَبي ارحمهُمَا كما رَبياني صَغيراً ..

فَاضَت عَبَرات الوَجد على نَفسي ، و بَكى كُل مَا يَدعو إلى الشَوق ، و تَجردتُ منهُم ذاتَ قَدر حَتى أطلقوا علَيَّ

صفة كَطلقة من مُسدسٍ كَاتمٍ للراحَة و الصَوت استقرت بين أضلُع الحَياة و المَوت ، صفة أنجبتهَا لي الحَياة ، كم كُنتُ أتمنى أن يَكونَ يَومي قَبل أن أسَتمع إليهَا ، صفة تَطفو على وَحل مَا تَبقى لي من حَياة ، و لكن لا حَياة لمن تُنَادي و لن توقفَ نَبضهُ كمن توقف سَعادتهُ ، و بكل قَسوة سمعتُهَا من أقرب النَاس إليَّ :

ـ يَتيم ..

قَالتهَا لي خَالتي بَعد أن أغمضَتُ عينيّ من كنت أخشَى عَليهما ، قَالتهَا بطَريقة مُغلفة بأوراق الأسَى :

ـ يلي خَلف مَا مات يا خَالة ..

ضمَادَات للوَجع ، كَلام مفصَّلٌ على آلة الصَمت ، و أمثالٌ تَأمرُكَ أن تَرتَدي أقنعة الصَبر ، يُريدُوننَا أن نُعمد بمياه قَضاء الله و قَدره ، هَكذا و بكُل بسَاطة يأمروننا أن :

ـ أنسَى ..

أنسَى من ! ، حَنين مَثلاً ! ، أم يُمَّة ! ، أم أنَا ! ..

أغلقوا أفواهكم ، و أعيرونَا صَمتَكُم ، لا مكَانَ لرفع أصواتكم على رُخام الفَقد ، لأنَ الفقدَ حَالة شَرخ لا يُضَمدهُ تَأبين الكَلمات ..

لا تُفسَدوا عَلينَا هَيبة الحُزن ، دَعونا نَنوحُ كَمَا تَميل إلينا الأرواح ، تَحاشوا غَضَبَ وَجعنَا لأنَ الوَجعَ مُؤلم إلى مَا بعد المَوت ..

تَحملُني خَالتي أمَينة إلى الغُرفة الثَانية ، تَنفُثُ في وَجهي ثَلاثاً .. ثَلاثَاً .. تَتَخللُ النَفثات المُعوذات و الصَلوات الإبراهيمية ، تَخشَى الجَدات من غَضَب تلكَ اللبوة بَسبب آخر مَوقف ، أشعرُ بحدة زَئيرهَا يتَقدُ بينَ عَينَيهَا ، بل كَسَيف مَسنون كُرِّسَ مَقبضَهُ لأجل خدمة فُتُوحَات حَروب الردة ، تَتَفادى الخالات النَظر إلى وَجه يُمَّة ، مُحاولاتٍ تَلطيف الأجواء بأحَاديث عَامَة ، تُنجد الضيوف خَالتي الكُبرى بسؤال لزَائرة مَعروفة بعَينهَا التي تَجعل الجَمل في القدر و الرَجُلَ في القدر :

ـ كيفك يا حَجة ، سَمعنَا أنو ابنك محمد طَلق فَضية بنت راشد العَبد العَزيز ارشيدات !! ..

تُلملمُ الحَاجة أُم مُحمد شَتَات ريقهَا ، لِيَصُمت مَن في المَجلس من نسَاء ثَرثَارات اتخَذنَ النَميمَة لقُلوبهنَ مَذهَباً ، يُفتحُ باب المَطبخ و ظل خَالتي جميلة قَد سَطا على المَجلس ، تُمسكُ بينَ قَبضَة يدَيهَا صينية زُجَاجية بأيَاد نُحَاسية من جهَاز عُرس يُمَّة ، تَمشي ببُطء خَشية أن يتَكبكَب من الكُؤوس مَشروب القرفة و الجَوز ، كأنهُ صَهريج من المَاء يَسيرُ بحمولته إلى أرَاضي الكَوكلية شمَال حوران ، لم تَكُن خَالتي جَميلة في المجلس و لم تَستَمع إلى سُؤال خَالتي الكُبرى ، تَفتَحُ جمَيلة جَبهَة تَرحيبية بالضَيفات :

ـ يا مية ألف ألف أهلاً و سَهلاً ببنات عَمنا ، و إن شَاء الله نُزوركن بالأفراح ..

تطَفو تَحتَ سَقف الغُرفة ضَوضَاء الُشكر و العرفان على حُسن الاستقبال و الترحَاب ، تَتَقدمُ جميلة بحمولتها

إلى الضَيفات ، تُمسكُ الأَكُف المُورمَّة بالشَقاء كُؤوس القرفة بالجَوز ، و يبدأ مُسَلسَل الغيبة و النَميمة ، لن تُفلت أُم مُحمد من الإجابة ، أعَادت الجَدة السُؤال ذَاتهُ :

ـ أي يا حَجة ، شُو سَبب الطَلاق ..

احمرَ وَجههَا مَرة أُخرى ، عَرفت في قَرار نَفسهَا بأنهَا قد انحسَرت في زَاوية لا مَفر منهَا ، و آذان من حَولهَا قَد شُنفت للإجَابة ، كَأنَهُ قصَاص :

ـ و الله يا أُم نَبيل بنات هَالأيام ما بنضبن بخُوم جاج ، و لا بعرفن دين النظافة ، و لا حَتى بعَرف يَقلن بيضة ، و ما هَنَّ تَربايت بيوت ..

هَذه المَدينةُ العَاقلة يُدَسُّ فيها السُمُ بالعَسَل قبل أن يُقبل الليل و قَبل أن يُدبر النَهَار ، حَفريات وَهمية تَشقى بمعاول الحَسد و الحقد تُحفر في ظُهُور الآمنين ، في لحظة سَعادة تَرى الأرض تَهتزُ من تَحت صَمتكَ لتَقَع صَريعاً في قَبضَة مُبغضيك ، يدورونَ حَولكَ كمَا يَدورُ الحمار حَول الرَحى ..

جَميعُهم يُريدُ من رُفاتكَ ، و لكأنَكَ ذهبهُم الثمين ، و لكأنكَ حَطبهُم الجَميل ، أنتَ دفئهُم الوَحيد ، و لكن ليس في كُل الفُصُول بل في صَقيع البرد تقودُهم الأحلام إلى مَدافئهم ..

بفؤوس عيونهم يُمزقونَ مَفاصل سَعادتكَ ، يُريدُونَ أن يُشَفونَ بحُزنكَ و جَزعك ، تتساءل طيلة حدادكَ من أوحَى لهُم هَذا الكم الهَائل من الشَرّ !! ..

سَقط إيمَاني بأنَ إبليسَ هو خَلفَ هَذا الكم الهَائل من النجس الذي لوث القُلوب ، حَتى توصَلتُ إلى نَظَرية :

لا يَوجد شئٌ أنجس من قَلب الإنسان إذا حسد !! ..

نَظَرية رُبمَا تُخالفني بهَا الرأي ، و لكن أُقسمُ لكَ بأنَ الحَقيقة تجعلُ المُبصرينَ عُمياناً ، و تَجعلُ من أطلقنَا عَليه تَسمية إبليس حَيراناً ، حَتى وَجدَ جوَابهُ الذي سيواجهُ به رَب العزة في يَوم العزة :

ـ رباه أنَا لم آمُرهُم بذلك ..

عَجباً لكوكَب النَقيض الذي حَدد اللهُ مسَارهُ بحَكمة بالغَة دَوخت أذهَانَ العُقَلاء و أنَزلتهم منَازل العُلماء ، و حَتى أتى الأنسَان و أفسدَ مَا كَانت تَخشَاهُ ملائكَة الله حَيثُ قَالت :

ـ أتَجعلُ فيهَا مَن يُفسدُ فَيهَا و يَسَفكُ الدمَاء و نَحنُ نُسَبح بحمدكَ و نُقَدسُ لك !! ..

أجابهُم وَاجدُ المَوجودات :

ـ إني أعلمُ مَا لا تَعلمون ..

هُوَ يعَلم مَا لا تَعلمهُ المَلائكة و لا نَعلمهُ نَحنُ ، و لا أَحد يَجرؤُ أن يَسألهُ عمَّا أحدثَ في حَنايا هَذا الكَون ، لم أعُد أُؤمنُ بهَذا الكَون فَفيه من الخَلل مَا يُلملمُ شَتَات إيمَانكَ و

يَجعَلُك تَجحدُ مَا حَاكتهُ جنيات البَشَر من مَاض بَعيد إلى يَومنَا هَذا ..

نَحنُ نُكملُ مَا بدأهُ المَاضي من حُروب ، نَموتُ في سَبيلهم من بَعد أن غَيبتهُم القُبور قُروناً ، كدتُ أن أصَرخ بنبوءتهم:

أن تَباً لكُم بمَا صَنعتُم بعَد هَذه الأيَام الغَابرة ، اطمئنوا سَادتي نَحنُ لازلنَا من بَعدكُم نُقاتلُ و نَتناحَرُ و نَتطاحَنُ عن أفكَاركم و مُعتَقدَاتكُم ، نَاموا في قُبوركُم سَادتي

وضَعوا أرجُلكُم وأيديكُم في مَاء بارد ، فنَحنُ و لله الحَمد و بفضَلكُم و بفَضل مَا ورَثتُمونا إياهُ من بُغض وَصَل عدد قَتلانَا أكثر من أَحيائنا و أضَحينَا غُثاء كَغُثاء السَيل نَحقدُ و نَبُغضُ و نَتقتلُ و نَسفكُ و نَغتَصبُ و نَسبي و نَنهَبُ باسمكُم ، فَلا حَرمَ اللهُ هَذه الأُمَمُ من شُرور بَركَاتكُم ، و جَعلَكُم كَعبة لمن لا بَغيض لهُ ، فمَراجعكُم عَامرة ، و أحَفادكم وَافرة ، و أتَباعكم

كالكلاب المَسعُورة مُنتشرة في كُل أصَقاع المَعمورة ، و نَحنُ هُنَا تَجمعُنَا ملة وَاحدة و تُفَرقنَا أحَقادَنا ..

تُقَاطعُ ثَرثَرة من تُدافعُ عن ابنهَا الطَليق و تُلقي بفشَل الزَواج على كَاهل الإنَاث الفَاشلات خَالتي الكُبرى حَتى تُعد حدة النقاش :

ـ بدكُوم تَجوزوه ! ..

تُعيدُ رَبطَ حجَابهَا المَعقود تَحتَ رَقبتهَا ، و لكنَ وَجهَهَا مُتقدٌ كَبطيخ أحمر ، لا يُمكن أن تَهزم البَاطل و أتباعه من الشجعان ، أنتَ لستَ في زَمن الأنبياء حتى لا تُغرُ بكَثرة أهل الشَر ، لأن القُوة بالكَثرة و الحَقُ أهلهُ قليل ، ضعاف مُحَاربين ومُضطهدين في كُل أصَقاع الأرض ، فَلن تَستطيع أن تُجاري أية امرأة كأُم مُحمد لأنهَا عن ألف جُندي يُدَافعُ عن بَاطله و شُروره :

ـ طَلبتلو وَحده من العياشيين ..

لم تَستَطع جَدتي كَتم غَيظهَا ، هَي التي لا تَعرف من الكَلام و البيان إلا أصدقهُ :

ـ يلي بشلح ثُوبو بَيبرُد ، و يلي بُوخُذ من غَير ملتو بموت بعلتو ..

تَشتعلُ أُم مُحمد ، يَكادُ كَأس القرفة بالجَوز يَتَكبكبُ من بَين أصَابع يدهَا ، تَحاولُ أن تُخرسَ الارتجاف الذي ألمَّ بهَا من قَصف حَديث جَدتي الذي سَقط على ضَميرهَا المَيت ، هَكذا و من غَير أية مُقدمَات :

ـ إن شَاء الله دَايمة يا هَيام ، و إن شاء الله تَفرحَي فيه و تُشُوفيه عَاريس ، و نَجيك بالأفراح ..

تَضَعُ الكأس أرضاً و تَقوم هَائجةً تَنوي المُغادَرة :

ـ الله يَسلمك يا خَالتي أُم مَحمد ، و القايل ، وين يا ويلي قَاعدات ، بَعدك مَا كملتي كَاستك يا دَادَه ..

تُعيد أُم مُحمد رَبط شعرها و تُدخلُ الخَارج منهُ عن قَانُون حجابهَا :

ـ تَسلمي يا هَيام ، نَشَربهَا بالأفراح ..

الجَميع عَرفَ بأنَ أُم مُحمد قَد بَدا الغَضَب على وجهها ، و خَرجت بلا عَودة من بَعد أن حَملت الكُره لجَميع من في المنَزل إلا
يُمَّة ..
أُغلقَ البَابُ خَلفهَا بطَريقَة استفزَازية ، و أغلقت هَذه الجَلسة خَالتي بَصوت يَحملُ البُغض :
ـ دَرب يَسد و ما يُرد ، مع مَية مَقلعة ..
لا تُريد يُمَّة أن يَحدث هَذا المَوقف ، لا تُريد أن تَخرُج الضَيفات مُنزعجَات من يَوم تُعدهُ يومهَا ، يَوماً أنَجبتني فيه ، و أنَجبتُهَا في قلبي ، كلانَا نَحملُ رَحماً و قَلباً و لكنَ الحُبَ مُتساوٍ إلى مَا بَعد الصَدى ، ذَاكَ الصَدى الذي سَمعتها في أول كَلمة تُنَادي بهَا :
ـ جَيبولي إياه ..
كانت البُودرة تُغَطي فَخذاي و ابطي و جَسدي ، أشعُر بأنَني قطعة عَجين على أُهبة الخبز و النُضج ، سَتُدخلُ إلى بَيت النَار قَريباً .. و دَخلت ..

مُغبرَّةٌ مفاصلي اللحمية بطَحين الطُفولة ..

أَشعُر بأنَني سأُخبز في تَنور الحَياة ، ها هُو جَسدي مُجردٌ من الستر كما هي أحلامي مَنهوبٌ منهَا كُلُ مَا هُو لذيذ ، خَالتي التي أُكنُّ لهَا مَحبة بقدر هَوسي بأُمي ، و لكن الفَاصل الذي لا يَجمعُهما هُو المزاح و الطَيش ، تلكَ اللبوة التي لا تعَرفُ سوى الجدّ في كُل أُمورهَا ، بينما خَالتي تَشعُر بأنَ الحَياة هي مَزحة ..

مَزحة قَدر ..

أَعيشُهَا عندما أُدخلتُ إلى أول غُسل لي ، هُنَاكَ بينَ البُخَار المُتَطاير كَستَائر النَوافذ المُطلة على حَنين ، أتَمعن بهَا كُلمَا سَمحت لي الفُرصَة ..

أنَا الذي أَضَعتُ ثَالوثَ الفُرص ، أنَا الذي كَانَ يُطلقونَ عَليه هَذا الطفل فُرصة لكَي تُواجهينَ به قَسوة الحَياة ، كَانت الحَياة أَقسَى من مواجهتها بسَيف قد خُلع مقبضهُ و تَشَظى درعهُ و جُرحَ مُتَرجلهُ و فَاضَت أرواحُ من حَوله ..

من سَأواجهُ يا تُرى !!

حَنين ! أم طفلٌ اتخذَ من صَدري مَسكناً ! أم أنَا ! ..

أنَا هُوَ ذَاكَ الطفل الذي تَمادى على ميزان القَضَاء ، مُوهماً ذَاتهُ بأنَ التمرُدَ نَزاهَة لا تُقاضيهَا السَمَاء ، ألم تَعلم السمَاء بأنَ الكَلمات في مخابئ مُلكي عَبيد أُسَيرهَا كَيفَ أشَاء ، أنحتُ من تَاء التأنَيث أُماً أحييهَا تارة و تَارةً أُقيمُ لهَا مأتماً أَدعوا عَليه جَميع الحُروف المُشبَّعة باليُتم ..

أُغلقت نَوافذ الغُرفة خَوفاً من دُخول البَرد ، تَخافُ عَليَّ و أَخافُهَا و نَخافُ ممن حَولنَا ، حَتى أضحى الخَوفُ مَطية لنُعلق عَليه جَميع أَحزَاننَا ، و لكن و أنَا في أُبهة الشيب لم يَبقَ مكان لأُعَلق عَليه مَا تَبقى من حُزن ، جَميع الفَراغَات شَاغرة بأَقنعة المَاضي ، بَعدَ آخر نَظرة أَلقيتُ بهَا عَلى يُمَّة ، أَوحت أليَّ مَدامعي و في سَيلها غَصَة في حَلق هَذا الكَون قَائلةً :

اليَوم و بَعد أن سَلبنَاكَ رُؤياهَا عَليكَ أن تُكمل طَريقكَ وَحدكَ ، لا مكَان لحُزنكَ كَي يُعلق عَلى مَشجب يُمَّة ..

هَيا اذَهب من هُنا لا أُريد رُؤية مَلامحكَ بعدَ اليَوم ..

شَاهقة عبارات الوَجع ، تُطلُ عَليَّ من علوّ كُل لَيلة ، تأتي لتُقَاضيني و تَقتصُ من ذَاكَرتي ، كم من وسَادة قَاسمتني دُموع الوله ! ، و كم من سَرير حَلقَ بي كَبسَاط سحري إليهَا ، أُريدُ أن أطَالهَا بكَف ذَاكَ الصَبي كَي أُخرسَ جَعيرهُ ، أُمسك به بكَفي و أرفعهُ عَالياً إليهَا ، و أصرخُ به :

هَيا أمسكهَا بيدكَ .. هيَ هَذه فُرصَتُكَ يا هَذا ..

تَباً لهُ لا يَعي مَا أقصدهُ و لا يُريد أن يَفهم بأنَ الذَنبَ ليس بذنبي ، اثنَان تَدثَرا بي طفلٌ يُدعى أنَا و أُمهُ التي كُنتُ أُلقبهُا ب :

يُمَّة ..

كَم بَالَ على فراشي و جَعلني استَيقظُ في أواخر الليل أغسلُ مُؤخَرتهُ و أُجففُ فَخذيه ، كُنتُ أصرخُ به : هَيا نَام .. مَتى سَوفَ تكبُر ! ..

و كُنتُ بَعد صُراخي بوجهه يُؤنَبني ضَميري ، كَيف أوصَلتني الذَاكرة أن يَكونَ قَلبي أقَسى من الحجارة بل أَشدُ بلوى ، المُصيبة العُظمى بأنَ الجُوع إذا حَلَّ به فَإنَ ليلتي سَوفَ تُهدني يَقظة سَلام هيَ حتى مطلع الفَجر ..

ـ وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

تَنبهت يُمَّة لصَوتي و أنَا في الغُرفَة المجاورة ، كَانَ تَحتي كَفن رَبيعي ذَكوري تَتَسارعُ صَرخَاتي لأَقودَ بصدَاهَا إليهَا لكي تَسمعَني ، شَنفت آذانهَا بَعدَ أن أوحت إليهَا هَرموناتهَا بالتأهُب ، صَاحت حَنين بأعلى أُمومتهَا :

ـ يا أَمينة ، إذا لَبستيه جَيبيه يا دَادَه !! ..

مَشغولة أمينة بَتقييدي بالأَكفان ، تُمددني تَحتَ القُماش كَحبات الأَرُز على سَطح وَرق العنب ، لعلني قطعة

يالنجي أو بعبارة أصَح مَلفوف يَبرق ، مُتأهَبات الخَالات تَحت سَيطرة أُختهم الصَغيرة المُدَللة ، الجَميع يَسعى لرضَاهَا لأنهَا أحبَ أُنثى لَقلب أُمهَا ، كَما هيَ أحب أُنثى لَقلبي ، تُحكمُ أَمينة الوثاق خَشية أن تُفلت يدي ، أَشعُر بأنَ الدماء وَصلت إلى فوهة نَافوخي و لكن لا مَفر ، إنهَا العَادة التي تَوارثتهَا الأُمهات حَنونة عن حَنونة حَتى وَصلت إليَّ ، فيالتَعاسَتي ، تَحملُني بَين صَدرهَا النحيل مُتجهَة بي نَحوَ يُمَّة ، تَرتفعُ قَرقَعة المُباركَات في حَال دُخولي إلى غُرفة الضيوف و ترتَفع زَغاريد الخَلاص :

ـ لولولولويشششششششششش ..

مبارك يا أُم مَيسم إن شَاء الله تَفرحي فَيه ..

تَرفعُ سَاعديهَا إلى الهَواء ، تُريدُني و لكأنهَا شَمس و أشرقت بنُور رَبهَا و السعادة قَبضتهُا و الفَرحُ دَارهَا و السُرور قَرارهَا ..

كَانَ البَردُ و الجُوع يَعبُراننني ، و أطرافي تَرتَجفُ رُعباً ممن حَولي ، عُيون أشهرت سهَامهَا أمَامَ فوهة الغطاء

الذي أغرقتني به خَالتي ، العَرقُ يَسري على جلدي كَدبيب النمل ، و لكن أَنجدتني البُودرة التي أضحت تَحتي كواحة طين ، أسعفني دُخول طفل أسمر بشَعر أسود لُطخت شَفتاهُ بالشُوكولا ، كَادت الغيرة تَقتلهُ ، ثَلاث أرباع نَظراتهَا تَحوم حَول ذَاكَ الطَفل ، تُريد أن تُقربهُ منهَا ، و لكنَ الأنَانية أوقعت بي طَريحاً بين خَالات يُتقنَّ هواية تَكفين الرُضَع ، كَان يَضَعُ أصابعَهُ في فَمه و لُعَابهُ قد سَال على ثيابه ، تُمسكهُ الجَدات مُقبلات خُدودهُ المُتورمة بالسُمرة ، تُخرجُ الجَدة من جَيبهَا حَبة سُكر تُعطيه إياهَا ، و لكنَ الخَجل أَذابهُ قَبل أن تَذُوب قطعة السُكر في فَمه ، تُنَاديه حَنين بقلبهَا المُشرك الذي أشَركتني بحُبهَا طفلاً آخَر :

ـ تَعال يُمَّة ، مَا بدك تُشوف أَخوك ! ..

يتَربع وَريثي الوَحيد على حُبهَا خَلفها ، يُوهمُ الضيوف بأنهُ لا يَرى أَحداً سواها ، يَنحسر وراء ظَهرهَا ، يُمسكُ بطَرف قَبة قَميصهَا ، يَهبطُ ببشرته السمراء التي لا تُشَابهُ بَشرتهَا ، كأنَ اللَيل قَد آفل و جَاء وَجههَا بنوره ، أعرى كَتفهَا للعيون الشَاهرة ، تُلمَلمُ قَبة قَميصهَا كَي تَسترهُ ..

مَدينة يتَدفقُ من بَين شُقوق أيامهَا الحَسد و العَين ، كَقدر يَغلي على حَطب التَجسُس ، بعَد كُل عَصر يَفترش الناس الأرصفة مُشنفين حَواسهُم للقادمينَ و الرَاحلين ، يُنقبونَ عن الجَديد ، ذاكَ الجَديد الذي يَروي غَيرتهُم و شَرههم الذي يُصَبُ في مخالد مَكائدهم صَباً ، كُل مَا تَراهُ و ما تَسمعهُ و مَا تَلمسهُ لهُ رَائحة ، كَدُخَان يَراهُ أهل الأحياء الغَربية إذا اشَتعلت نيران الأحياء الشَرقية ، أنتَ في مَحل خَبر سقوط ، و بلغَة أصحُ ألماً :

الجَميع يَنتظرُك بأن تَسقُط ، و إذا سَقطت فَسيرممونَ كُرههَم لكَ بالدموع ، موهمين إياك بأنَ قُلوبَهم مَعكَ ..

يا لنفاقِ ما يُحيطك من أَقنعة و جَماجم ، و أن تَبقى قَوياً بين هَذه الكُثبان البَشرية يعَني أنكَ وَصلتَ إلى مَا وَصَلهُ النبي أيوب من صَبر و بلاء ..

المَشهد كان أكَبر مما أصفَ لكَ المُجتمع الذي سَقطنا به كُرهاً و غَصباً و ظُلماً عنا ، المَشهد كَان مُتَلبداً بعَفوية حَنين ، فَلولاها ما وَصلت القَافية إلى سحر السُطور ، لم يَعد لَدي وَطن لأقُدمها مَلكة لتَحكُم ذَاكَ الوَطن و مذ أن تَهاتَف العَرب عَلى السُلطَة سَقطت المُروءة و فاحت رَائحة الرُجولة و بتُ أسأل الأُمم التي تَجعل من المَرأة عَيباً و ذَنباً إذا وَصَلت إلى مَا لم يَصل إليه الرجَال :

ما بَالُهَا بريطَانيا و ألمانَيا ! ، امرأة وَصَلت إلى السُلطة فَقلبت مَوازين الرُجولة رأساً على عَقب و جعلت الحَضَارة سَافلهَا عَاليها ، و أَمطر العَدلُ في كُل أصَقاع الأرض ..

أم عندكُم حَكمة و كماشَة لتُعلقوا عَليهَا فَشَلكُم !! ، تَباً لكُم بمَا صَنعتُموهُ من ظُلم في الأيَام الغَابرة ، و هَل الأيام

الغَابرة سَوف تُسَامحكم ! ، لا و الله بل سَوفَ تُقاضيكُم أمَام الله و التَاريخ و المُجتمعات التي عَرفت مَعنى الحُرية ، ابتَعدوا عن سُطوري فالحَياة قَصيرة ، دَعوني أكتُب ذَاكَ الشَرخ الذي سَببهُ لنَا أسَافلة العَرب و أنزلونَا إلى الحَضيض ، و لكن شَيء وَاحد هُوَ الذي يُنجدني من فَضَائحنا :

الصَمتُ في حَضرة الدواب الدَاشرة فَضيلة ..

تُخبئُ حَنين كَتفهَا الذي أعراهُ من يَدعي أنهُ أخَي بحَيائه الغَير مَنطقي ، بعيون غَائرة خَلفَ ظَهرهَا يَهبطُ كَلمَا اتَجهَ بتجسسُه عَلي ، لم يَكُن يُهمني أمرهُ لأنَ الجُوع أوشَكَ أن يَزُلزل جَسدي ، كدتُ أن أُعري صَدرهَا بحثَاً عن التوتة و هُروباً من البَراءة المُصطنعة ، كدتُ أن أَكونَ وَليداً مُتَطرفاً لا أُحبُ التَرتيب في العَاطفة ، لا أُريد أن يُشَاركَني في صَدرهَا أحد ، و لكَأنَنَا التقينَا أنَا و هُوَ كَي نقتسم التَركة التي تفصلُنَا ، هُوَ يَأُخذ الظَهر و أَنا

آخُذ الصَدر ، و تَنتهَي القَضية و كُل شَخص يَذهَب في سَبيله ..

لا يُهم السَبيل الذي يُريدُه ، و لكن من المُهم أن أعرف أنهُ اتخذَ سَبيلاً غَير سَبيلي ، كانَ ذَاك الجَسَد لهُ اسم وَاحد فقط و لكنهُ تَفصلهُ الأُمنَيات و المَطَامع مُتناسَينَ من يَكون بالنسبة لنَا ، وَصَلت إلى الفَائدة التي قَيدت كُلَ فَائدة :

كَيفَ لمَحل أَحجار كَريمة أن يَبقى صَامداً و مناجم قَد نَفذَت مما فيهَا !! ..

كَانت مَنجماً و لم نَكُن نَشعُر ، باسمهَا تَصطفُ الأُمنَيات و نُقطفُ كالفاكهة الحَامضَة التي لم تُقطف بعد ، و نُلقى أرضاً لمَرارتنَا و صُعوبة مَضغنا ، اسماً نُصَادفُ به الذَاكرة كُلما جَاءَ النُور ، يُحاكينَا و نُحَاكيه و يُحيكُ لنَا أَشباهَ أُنثى :

ـ يُمَّة مين هَاظَا ..

تَضحكُ النسوة في لَحظة التَعارُف و تَقسيم التَركة ، تُنَاديه خَالتي بصوتهَا المُرعب :

ـ هَي وَلاك تَعال لهون خَلي أُمك تَرتَاح ..

يَرفُض بعناد الكبار و يُلقي عَليهَا نَظرة غَضَب ، و يَتخفى خَلفَ درع جسد حَنين :

ـ بَديش .. هَاي أُمي ..

فتحتُ عَينَاي كَالذي سَمع صَوتاً أَول مَرة يُنَافحُ عن حَنين ، و لكن يدَاي مُعقودتان بوشَاح الطفولة ، كَي نُروض على الاختناق من بداية الحَياة ..

لم أعُد أعرفُ الحَياة ، هَل هي معي .. أم ضدي .. أم أنها تأتي بما لا تَشتهي السُفن !! ..

لم يَعُد لَدينا بحَار عَائمة بالسَعادة كَي تَسير عَليهَا سُفن الكَلمات المُحملة بنَا إلى شَواطئ الإهانة ، و هَل تَرجو إهانة أكثر من ذَلكَ ، كدتُ أن أَصرُخ بخالتي أَمينة التي أَحكمت وثَاقي بالصَعيدي :

ـ فُكيني يَا وَلية ، خَليني اَعلموا مين بتَكون أمو !! ..

أَمينة كَانت تَتَهَامسُ مع ابنة عَمتهَا عن صُعوبة الحَياة في قَرية المسيفرة القاسية ، زُوجت لرجُل يَعملُ في الكَويت من أصول آل الزَعبي و أَنجبت منهُ فتية و فَتَيات ، و عَاشَت الأَمرين بَعد أن عَادَ زَوجها الذي سَلبوا إخوتهُ منهُ أموالهُ ، و لم تَدع حَقلاً و لا آلة خياطة إلا و دَشَنتها كَي تَستُر على أمعاء أطفالهَا ، و لكنَ الله سَترهَا بَستره و عَوضَها بشُبان طَيبين بارينَ بهَا رَفعوهَا كمَا رَفع يَوسَف أبوَيه ، و مع ذَلكَ أشعرُ بأنَ لا أَحد يَفهمُ مَا بي :

ـ وَاااع .. وَاااع .. وَاااع .. وَاااع ..

كَانَ المَجلس الاستشَاري حَول أُمي يُبررُ بُكائي ، جَدتي تَقتَرح أن أرضعيه ، و الجَدة الثَانية أن حُلي وثاقهُ ، الخَالة في رَأيهَا بأنَ الحَفاضَة بحَاجة إلى تَبديل ، و ذَاكَ الطفل الذي يدَعي بأنهُ أخي كَان رَأيهُ قَاتلاً :

ـ يُمَّة .. كُبيه شُو بدنَا فَيه !!

اشتعل المَكانُ ضَحكاً ، و اشتعلَ قَلبي غَيظاً ..

ـ فُكيني يا أَمينة ..

تحاولُ أمي فَكَ تلكَ القُيود المَعقودة بإحكام ، يتشظى ذَاكَ الطفلُ غيرة و تَسيلُ من بَين شَفتيه المُتسَختين بالشُوكولا لعَابهُ ، تُجنُ حَنين برؤية هَذا المَشهد :

ـ اغسلي وَجهو يا اَمينة ..

يُجنُ جُنونهُ كَالذي طَارَ عَقلهُ ، و اَنفجَر بالبُكاء ، حَاولتُ أن أُفسر بُكَائهُ ، فهو لم يُقيد مثَلي ، و يأَكُل الحَلويات التي يُريدهُا ، و لهُ حُرية الاختيار ، و أَنا كدُودة القز المَلفوفة بألف عُقدة ، و لا زَلتُ أَحلُ عُقَدي و لكنهَا مَعقودة بإحكام و أَحكام لا تطالهُا سَمَاء و لا تَمسهُا أَرض ..

قَالوا لي ذَاتَ فَجيعة :

ـ حَلقت رُوحها إلى السمَاء و الجسَد لهُ التُراب ..

كَانت تلكَ إذا قسمة ضيزا ، استَيقظَ قَلبي بعدَ أعوام من الحُب عَاشَت معنا ، كَانت الجُدرانُ مُخضَبة بالحَنَان ، و

أحَلام على مَقاس تَشَاجُرنَا على قطعة الكيك التي تُعدهَا حَنين ، كُنَا نَتسابقُ على اَكل الحَلوى ، كَأنَ في خَلايانَا نَقص عَظيم ، وَضَعت حَنين حَلواهَا في فُرنهَا ، و كُلُنَا جُلوسٌ خَلفَ زُجَاج بَيت النَار نُراقبُ كَيفَ تَنضُج حَلوانَا ، رَحَلت حَلوانَا حَيثُ تَقاسمتهَا السَماء و الاَرض ، و نَحنُ لا زلنَا نَنتظر كَي تَنضُج ..

هَل نَضجنَا ! ، أم نَضُجَ بنَا الوَجع !! ..

نَعم دَرجة حرارة الألم ثَلاث مئة و ستون مئوية ، تُعدُ أعلى مَقاييس الالتهَام ، مَتى سَتنضُج تلكَ الكَعكة ، و نَجلسُ حَولَ مدفئة البَيت نتشَاجر على القطعة الكُبرى المُغطاة بالكريمة ، و نتباطأُ على أَكلهَا بكُل رَوية ، تَجلس القطعة في صَحن أحدنا أربعين دَقيقة ، مع أَننا نَستطيع أن نَأكلهَا في دَقيقة وَاحدة ، و لكن حُب الاستيلاء و التَمتُع بالأشَياء اللذيذة جَعلنا كَالنمل الذي يَنقُلُ نصف كيلو سُكر إلى جُحره ثَلاث أيام بتواليهَا ،

في روَاية أُخرى ثَلاثة أيام بلياليهنَ ، لكَ قطعة وَاحدة كما أن لكَ أُماً وَاحدة ..

إذا هَبطت إلى مَعدتكَ انقطعت اللذَة ، و كَذلكَ حنين قَطعها الرَحيلُ عنَا ، و قَطعنَا الوَجعُ أوصالاً على رَحيلهَا ، مَسكونينَ بهَا إلى الحُلول ، و الغَرق بطَيفهَا إلى الضياع ، تَاهت كُل قوافي الوَصل و تَجبرت على نَار النُضوج و تَآكلَ في قُلوبنَا الشَوق حَتى أَضحت أكبر أحلامنَا الحَج إلى قَبرهَا ما استَطعنا إليهَا سَبيلاً ..

تَسحبُ أمينة ذَاكَ المُتَطفل من سَاعده اليُسرى ، يتشبث بقميص حَنين بأصَابع كَفه اليُمنى ، تَحاولُ بكلُ قواهَا سَحبهُ ، و لكنهُ كَان أشَدُ منها قُوة رُغم صغر سنه ، دَوافع الذَاكرة و تَراكُمات الشَوق أوصَلتني إلى نَظرية : إياكَ و أنت تُفلت الكَف التي مُدت لكَ ..

نَظَرتُ إليه بَاكَياً ، أن دَعهَا كَي تَحلَ وثَاقي و عُقدَ الحَياة ، و أَخيراً قَامت الجَدة و دَغدغته و وَقع على سَرير

حَنين و سُحبَ إلى الحَمَام ، تَصيحُ أُمي بأمينة المَسكينة :

ـ يا أمَينة !! ..

تُمسكُهُ أمَينة كَدَجاجة تَخافُ من الذَبح :

ـ أيوة دَادَه ؟ ..

الكَفنُ لَفني بقسوة كَأنَني سَمكة سَلمون و وَقعتُ في عُلبة سَردين :

ـ حَمميه ، و لَيفه مَليح !! ..

أووه ، الآن شُفي غَليلي من ذَاكَ الصَبي المُدلل ، سَوفَ يشَرب من الكَأس ذَاتهُ الذي ارتويتُ منهُ ، سَوفَ يُوضع في المَاء السَاخن ، و البُخَار يتَصَاعد في مستودع السَاونا ، و يُفرك بليفة خَشنة حَتى يشوى جلدهُ ، سَوفَ يَعود كيوم وَلدتهُ أُمهُ :

ـ هَاااا .. هَاااا .. هَاااا .. يا للعَنة !

كُنتُ أسمعُ عَويلهُ كَأنهُ سَيارة إطفاء ، و لكنَني آثرتُ الصمت لأن الذي فَكني هي حَنين ، كُنتُ أشعُر بأنَ

حَنين لَيست معي ، أشعُر بأنَ قَلبهَا يتَقطع على ذَاكَ الصَبي ، و قَلبي يُشَفي غليلهُ مما صَنعَ معها من عُقوق ..

كَبُر ذَاكَ الصَبي لتُقلبَ المَوازين فَجأة ، لم يَعُد يَبكي و لا يَصرُخ ، سنهُ عُشرونَ عام كَانت حَنين جَالسه في غُرفته تَبكي بصمت تُرتبُ لهُ ثيابهُ في حَقيبته ، يُريدُ السَفر من أَجل حَياة أفضل ، تَاركاً خَلفهُ حَياة أفضل مما سَيجدهَا في دُبي ، يُربتُ على كَتفهَا والدي :

ـ استهدي بالرَحمن يا أُم مَيسم ، الوَلد صَار زَلمة ..

تُريد أن تَستغل الفُرصَة قَبل أن يَخرُج من الاستحمام ، تُريد أن تُغرق الكونُ عَويلاً ، ذَاكَ الصَبي البار و الخَلوق و الحَنون عَليهَا التي تَقول عنهُ دَائماً :

ـ لو تأخذُوا عيون قلبي و تَروه .. مَا أجملهُ ..

كَانَ جَميلاً أملحاً أسمراً كَكَابتشينو ، تُحبهُ أمي لأنهُ أكثرنَا صَمتاً و طَلباً و يَعلمُ مَا يَدورُ حولهُ من مُتطلبات

حَياة ، يَعملُ في الصَيف كَي لا يَحتاج من أَهله شَيئاً طيلة الفَصل الدراسي ..

أعانهُ الله أبا عَامر ، و نعم الأخ و نعمَ الصَاحب ..

أُحبهُم لأنهم سَقطوا سَهواً من رَحم حَنين ، شَاركوني سَلسَبيل حَليبها و دفء حُضنهَا ، و تَقبيل كَفهَا ، جَميعُنا نحبهَا و بارين بهَا ، لَيسَ لأنهَا أُمي ..

بل لأنهَا حَنين .. حنَين بكلُ مَقاييس الحَنين ..

و أنَا على أرصفة الاغتراب أكتُب لهَا كما لم يَكتُب أحداً رسَالة لأُمه ، لا دَاعي كَي أوقظ الذَاكرة ، فَالذَاكرة مُلكاً لهَا تُحييني و تُميتني في آن وَاحد ، لا زلتُ ذَاكَ الطفل الذي ينتظرُ منهَا كُل شَيء ، ذَاك الطفل الذي يَدخُل في أي وَقت إلى منزله و من غَير أن يَنتبه يَقول : أينَ أُمي ..؟!

أنَا هُوَ ذَاكَ الطفلُ الذي لا زَال يَبكي ..
و يبتَلُ فراشهُ وَجعاً في كُل لَيلة ، و تَبول الأُمنَياتُ فَوق خَشَبة مَسرحه الذي بنى فَوقهُ كُل أَحلامه ، و يَجلسُ أمَامَ مَحطات المترو يُراقبُ العَائدينَ من المَوت ليسألهُم ذَاكَ السُؤال :
ـ هَل رَأيتُم لي يُمَّة !! ..
أنَا يَا يُمَّة ذَاكَ الطفل الذي رَحلَ مَعك قَبل أن تُوسَدي تَحتَ الضَباب ، أنَا ذَاكَ الضَبَابُ و التُرابُ و السَرابُ و الكلمات العَابرة مع كُل سرب مُهَاجر مع كُل جُرح ..
مُتعَبة القَوافي من مَمشَى السُطور ، تَجلدُ العبارات الهَاربة إليك يا جَنة الحَياة ، كُنتُ لا أُؤمنُ بالجنة البَتة لأنَ جَنتي أنتِ ، و رَحلتِ إلى دَار القَرار تلك فَأضحيتِ قَراري و جَنتي .. !!
هَل هَذا كُفر ! ، فليشهد الثَقلان أني كَافرٌ بكُل عَاق لأُمه مُؤمنٌ بعشقه لمن قَال عنهَا المُصطفى المَحمود و المُجتبى المَمدوح :

ـ الجَنة تَحتَ أَقدام الأمهات ..

فَكيفَ لوَ كانت الأقدامُ جَنة و الوَجنة حنة !!

أخبروني كَيف بالله عَليكُم !..

تَشطُرنا الأرحامُ إلى أجزاء نقتاتُ على الحنَان ، نَستهلكُ جَسداً آخر نَظنُ بأَنَهُ خَالدٌ مُخلدٌ إلى يَوم الدَين ، و نُكملُ مَسيرة الأَحلام على بُنيان البقاء في هَذه الحَياة ، و فجأة تَرحل الحَياة بزوال من تُحب ، و تَبقى المَنَاديل الصَالحة لتَجفيف نَزيف الرَحيل و سد منَابعه ..

هَونوا عَليكُم سَادَتي فهَذا النَزيف لن يَتوقف ، فَفيه جراح و ملح و ألم و ذَاكرة و فيتامين أَقربُ إلينَا من حَبل الوريد و أشهى من رَائحة الجنَان السَبع ، و أَجمل مَا بهَا و ما فيهَا و ما عَليهَا ، رَائحةٌ أقوى من ما صَنعتهُ الزُهور و أبهَى من الجُوري و العُطور ، رَائحة تُحيي ذكراكَ و تُميت مَبكَاكَ و إن كُنتَ عَاقاً تَجعلُك كَهلاً كما يَجعل اللهُ الولدانَ شيباً ، رَائحة أعودُ إليهَا كُلما جَزَ قَلبي الحَنين ، هُنَاكَ على مَنحر هَواهَا بصَندوق خَشَبي يتَربعُ

شَالهَا ، أفتحُ منَافذ الصَندوق مُستفتحاً بالصَلاة على مُحمد و آل مُحمد و أَزواجه و أَصحَابه و أحبابه ، فَتعجُ أبخرة النور كَأنَ بابَ الكَعبة قَد فُتح بَل بَاب الجَنة بَل كَأنَني أَستَمعُ إلى مُنَاد من السَمَاء يَقول لي :

ـ ادخلوا أبوابَ الجَنة آمنين ..

يَهبُ الهَبوبُ فَيتَدحرج العطر من علو شَاهق إلى وادي الفُؤاد منصباً كَالشَلال الجَارف ، لتَغرق مُحيطَات الذَاكرة بَعبق شَالهَا و تَتَسع منَافذ الرُوح بجزء صَغير من نُور جَمَالهَا ..

بَهية الطَلة أم النُور التي أُلقبهُا بحنين ..

بَهية الطَلعة هَاجَرت لهَا الأفئدة من كُل فَج عَميق ، يَطوفُ بهَا الخيالُ في كُل لَحظة كَمَا يَطوفُ بهَا حَجيجُ بيت الله الحَرام ..

أليسَ حَراماً أن أرى حَنين تَجلدني بالحَنين !! ..

و الله حرام أن تُسوى بي شوَاهد الحَنين فَوقَ الأرض و تَرقُدُ حَنين مع فُلول الرَاحلين ، فَأينَ أنتِ يا حَنين !!

من سَيُرضع ذَاك الطفل اليَتيم !! ، لمن تَركتيه يا أمُ اليَتيم ، في بَعض أحوالي أُسميك حوران اقتفاءً بأُم اليتامى ، و من مثلك يا حنين !! ..

أنَا مثلُ رَحيلك لا جَابرَ لي سوى ذكراك ، أُجَففُ عَويلي بالغياب ، و أتعكزُ ببقاياَ صور كَانت لي بهجة و أضحت لي لَعنة ، لَعنة الوَداع و البُكَاء و البقاء على قيد التعب ، هَل أتعبتني المَسَافات يا حَنين !!

مُتعبٌ من الذَاكرة يا أُماه ..

أنَا رفاتكِ المَبتور منكِ ، أفَلتت كُل الأمنيات يا كُلَ الأمَاني ، عندمَا أُفرغت كُل سَعادَتك في رُؤياي عَريساً و حَولك أولادي !!

زَغردي يا جراحي و اضرُبي عَليهَا بالدُفوف ، في حينا عُرسٌ و رَحيل و شَهيد و مَرس ، و أطلي يَا جَارة الحُب من شُرفة العَابرينَ من كُل المباهج ، ألقي عَلينَا الأرُز المَجبول بالياسمين ..

فَفي حَينَا عُرس و رَحيل و شَهيد و مَرس ..

أرتمي قَبل كُل نَوم ، و هَذا إن جَاءَ لي النُوم فَذاك و رَبي يومَ عيد ، أرتَمي لأُمرغَ أنفاسي بشَالهَا كَعبد آبق تَاه في الصَحراء ، و قَبل أن يتَداركهُ الموت أدركهُ الذي خَلق الحَياة و المَوت بواحة غَراء مُظَللة بالنَخيل فيهَا تَغاريد سُمر و عَصَافير حُمر ، بل كَمُحب صُوفي أنشدَ دهَراً للنَبي و عندما أتعَبهُ العشق حَجَ شَوقاً للحَبيب حَتى أدركتهُ الأنوار على شُباك النبي المختار و مَرغَ أنفهُ بالأقفال أن أفتح لي الباب أيُهَا البواب ، حيثُ سمعَ صَوتاً تطيرُ لهُ القُلوب و تَرتمي لنشيده الهَبوب :

ـ خابَ و خَسر من أدركَ وَالديه عند الكبر أحدهُما أو كلاهُما و لم يَدخُل الجنة ..

تَرتفعُ الأعناقُ كمآذن الأزهَر الشَريف تُعانقُ الغيوم في يَوم الغُموم ، تَنصتُ لصَوت النَبي أن الجَنة لا يَدخُلهَا عاق لوالدَيه حَتى لو حَج بَيتَ الله بقدر شَعر رَأسه ..

أرفعُ شَالهَا و أضَعهُ على وَجهي كي تَعُم البَركة و تَتَفتح مَسَام الشَوق إلى أبخرة العشق ، و تَصيحُ الأحوال هَل هَذا شَالُ حَنين !!

نَعم أيتُها العَواطف يا زَلازل الرُوح إنهُ شَال حَنين المُمَرغ بعبق رأسهَا و غَفوة جلدهَا ، ذَاكَ الجَلد الذي تَراكمَ من نُوره جلدي ، و تَزاحمَ من شمسه عَظمي ، و كُنتُ طفلاً جنياً ، أجني مواجع الرَحيل على غَياب حَنين ..

أرجُوكِ يا حَنين لا تُوجعينَا ، فَالألمُ قد وَصَلَ إلى الحَلقوم و ضَاقَ بهذَا القَلب شَوقاً ..

كُل العُشَاق يُوصُونَ أن تُدفنَ مَعهُم مَفاتيح أحوالهم !!
أَحببتُ فكرة شيفرة السر ، رُبمَا ليستَدلَ المَعشوق يَومَ الزحَام على عَاشقه ، هَل هُوَ دَليل !! ..
في ذَاكَ اليَوم المَشهود يفر المَرءُ من أبيه و أُمه و أَخيه و صَاحبته التي تَأويه إلا العَاشقين ، لأن المَرء يُحشرُ مع من أَحب ..
أُشهُد الله و الثَقلين بأَنَني أُحبهُا حَتى تُدركنَا شَفاعتهَا عند من لا تَضيعُ وَدائعهُ و لا يُظلمُ عندهُ أحد ، و ظَني فيكَ يا رَبي كبير ، حَتى كَتبتُ في وَصَايا المَوت أن أنزلوا في قَبري سُبحتهَا و شَالهَا و سجادة صَلاتهَا ، أريدُ أن أَحملُهَا يَوم لا تُحملُ الأقدَامُ على أجسَادهَا ، و أرفعهُ فَوقَ الرُؤوس و أصرخُ بينَ الجموع :
هَل تَعرفونَ تلكَ المَرأة التي كَانت تُسبحُ الذي تُسبحُ لهُ السماوات و الأرض ، صَاحبة السُبحة و الشَال ! ، من رآها منكُم فَليُخبرهَا بأَنَني أُحبُهَا و أَنَا هُوَ ذَاكَ الطفل

الذي إذا انقَطعت به السُبُل و تَشَردقت بحُلقومه الحَياة يَصيحُ بأعلى يُتمه :

ـ يُمَّة !! ..

بصَوتهَا تُرفعُ الكُرب و يُحلُ بهَا العُقد و تَنجلي بها الهُموم و تَزول منها الغُموم ، و بجوعي و انطوائي و عُزلتي و انكساري و شَغفي و لَهفتي أتوسدُ الذَاكرة كَما يَهوي عُشَاق الحُسَين حَولَ ضَريحه ، فَالقَلبُ حُسينيٌ لوَلائه لآل بَيته ، و الحُزنُ بينَ شُقوق الآماق عَاشُوريٌ كَأنّا فقدَنا حَفيدَ النبي ، فَالطُمي يا نَبضَات القُلوب و شُقي عَويلك يا عبارات الجُيوب ، فالدَمعُ دَمعنا و العَزاءُ عَزاؤنَا و الصَبرُ مُجَازونَ به لا مَحَالة ..

على مُفترق الوداع ينحسرُ الشَيبُ مُشتعلاً في كُل ممرات الرَأس ، يتسَاءلُ ببياضه مَا تَبقى من حَياة و حَنين :

هَل وَجدتَ مَا وَعدكَ الشَوقُ خَيراً ..

يسألُني الشَيب ، و انَحناء الظَهر ، و الخَوف المُتربص بي ، و تَجاعيد الوَجه و اليَدين ، و الطُرق الخَالية من طَيفهَا ، و المطَارات التي تُحَلق منهَا كُل الطَائرات إلى غَيرهَا إلاهَا ..

هَل سَتلتقي بهَا !؟ ..

تَسَألني الأمكنة المُزدحمة بكُل أُنثَى يُسمعُ حَولهَا نداء : ماما ، و الأزمنة المُرفهة بكبَوة العَائلات ، و الأرصفة المُتهالكة بالأقدام المَارة إلى بيت يَأويهَا ، و العيون التي لم تَهطُل منهَا دَمعة يُتم :

و إذا التَقيتَ ماذا سَيحصُل !؟ ..

تَسألُني الأسرة المَفروشَة بالوَحدة ، و الوَسَائد التي تتكأُ عَليهَا مفاجع الرأس أكثر ممَا يُنَامُ عَلى جنباتهَا ، و السنين العَابرة بسُرعَة السين قَبل كُل تَسويف ، و إقبال النهَار على أمواج الظَلام :

مَا هيَ أول كَلمة سَتقولهَا لهَا !؟ ..

عَرفتُ بَعد تعَب من العلم بأنَ النبي يَوسُف رَفع أبويه إلى العَرش و خَرَ مع إخوته لوَالده و وَالدَته سَاجدين ..

هَل يُسمح بأن أَسجُد لهَا !؟ ، أوجهُ هَذا السُؤال من برلمَانيين لأَهل العَلم الذين يُفتونَا في دستور الله ، و إني لكُم من الشَاكرين ..

كُل هَذه الأسئلة تَسقطُ في رحَاب رؤياهَا ، رأيتُهَا في رؤيا قَبل أربع سَنوات و بعد رَحيلهَا بسَنة واَحدة في المَملكة الأردنية الهَاشمية في عَروس الشمَال إربد ..

أتتني بعباءتهَا و شَالهَا الأسود ، يُدشنُ النُور لحَظة السُرور ليكسو المكان وَهجاً لم أرهُ على سَطح قَمر و لا على وَجه أرض ..

نُور ليسَ كَالذي نَراهُ بل إنهُ مَخلوقٌ آخَر ، و لكن يُطلقُ عَليه صفة نَور ، إنهُ ليسَ كَنورهَا لأنَ نُورهَا لا يُشبههُ نور ، تَصعُب على الكَلمات أن تَصطفَ حَول ذَاتهَا لتصفهُ ، لأنَ الجمال لا يَحتاجُ لوصف ، فَالجَميلُ جَميلٌ حَتى لو تَراكمت العباراتُ تَشهدُ على ذُروة جَمَاله ، و

القَبيحُ من لم يتَدارك قُبحهُ بتَطهير قَلبه و رُوحه فلن يسلم من تَراشُق الذم و الشَتم لشَخصه ..

هَكذا أتَتني، نُورٌ كَاملٌ كَأنهُ بدرٌ يَعجُ شُعاعاً و هَبط على غُرفتي، و أَنَارَ جَميع أروقة ظُلمَتي ..

أسعفيني يا حَنين يا أُمَ القَبائل و اليتَامَى ..

كُنتُ قَبل أن أرَاهَا في هَذه الرؤيا أَحملُ على كَتفي في كُل صَباح خَمسين كيساً من الخُبز أُطعمهُ عن رُوحهَا تَيمُناً بَقول الحَبيب المُصطفى :

ـ إذا ماتَ ابنُ آدم انقطع عملهُ إلا من ثَلاث : صَدقة جَارية ، أو علم يُنتفعُ به ، أو ولد صَالح يدعو له ..

و أشعر بحَلاوة الخُبز كَيفَ تَصطادهُ أفواهُ المَسَاكين و الفُقراء ، و السَعادة العَامرة بأجر الصدقة ، و فَرحي بصُنع الخَير ، و لَهفتي بالكَيفية التي سَتتلقى يُمَّة كَومة الحَسنَات بعدَ المَمَات ..

كُنتُ دَائماً أُشعلُ في ذهني فَتيل التَدبُر كَيفَ يَسيرُ الأجر إلى صَاحبه بَعد المَوت ، كَيفَ يَطرقُ قَبرهُ التُرابي ، كَيفَ يُوقظهُ يَقول لَهُ :

اسَتيقظ هَيا ، قُم من مَقامكَ يا هَذا !! ..

يُزيلُ من مَلامحه تَعبَ الأيام ، يَمسحُ أجفانهُ التي أغمضهَا لهُ أهلهُ ، يَكشَف الأكفان ليرى الَحسنَات كَالنَجوم الطَائرة حَول جَسده المُمدد للآخرة :

ـ من أنتَ ، و ما هَذا النُور الذي يحَتويكَ !! ..

تَبتَسم الحَسنات كما تَبتسم حَنين :

ـ أنَا عَملكُ الصَالح ، أَتيتُكَ من عَالم الدُنَيا ، أحملُ لكَ سَلاماً مُبلسماً مُعطراً مُبخَراً من فَتى يُقالُ لهُ ابنكَ الذي لم ينسَاكَ أبداً ..

يَتنبهُ ذَاكَ الذي أعدنا جَسدهُ في غمد التُراب :

ـ من هُوَ ! ..

إنهُ ابنكَ الذي يخَرجُ كُل صَباح يَحملُ شَوقهُ و عَطشَهُ و حُبهُ لرؤياكَ في جُعبة قَلبه ، و يُمسكُ أكَياسَ الخَير

لتَصل إلى جَوفكَ و تَنعُم بهَا في قَبركَ و يَومَ قيامكَ إلى يَوم تَنهدمُ به القُبور و البيت المَعمور و تَتَعانق الصدور ، و يُحشر كُل عَاشق مع كُل معشوق ..

يُحملُ الخُبزُ إلى سُوق البُخَارية كُل صَباح ..
السَاعة العَاشرة صَباحاً و قَبل أن أُشرع أبواب مَتجر مُؤسسة الشوحة ، يَصطفُ سرب الجياع كَمَا يَتهافتُ الحَمَامُ ليلتقطَ أرزَاقهُ ..
نداءَ السَمَاء أسمعهُ يسَحبُ كَلَ مَا بي من عَطش ..
عَطشى تَلكَ التي كُنتَ أقولُ لهَا :
ـ يُمَّة !! ..
اليوم و بَعد أن سَلبنَاكَ إياهَا أضحَيتَ تَقول لها :
ـ المَرحومة !! ..
فَوارق بينَ الكَلمَات ، كَفوارق الأرض و السمَاوَات ، كُلٌ لهُ حكَايته ، و لكنَ الحكايات تَأفلُ في لحَظة الغياب ، على مَرأى الهبوط لن يَنفعُ النَدم و لا العتاب !..
على من تُسري عتابك !!
على القدَر و القَضَاء ! ، أم على من سَيّر هَذا الفَضَاء ! ، أم على التُراب و الحلول في اللحود و القُبور و بَين جيوش الدود !! ..

عَلى من تُلقي جَزعكَ !! ..

سَتُلقيه بأيادي الأسَباب التي فَرقت بينَكَ و بين الأَحباب ، و لكن امرأةً من الغور الشمالي تُنجدني من عَاصفة قَلمي، تَأتي لتَلتقط رزقها كُل صَباح ، تَجرُ في يدهَا أكياس الأرُز و الطَحين من أَهل الخَير ، قَد ألقى القدرُ على كَاهلهَا سَبعةً من الأيتام ، فَلعل حَالهُم من حَالنَا ، هُم بحَاجة إلى لُقمة لتَسُد رمَق نُموهم في هَذه الدُنَيا القَاسية ، و نَحنُ بحَاجَة إلى حَنَان من قَلب حَنين ..

سَامَح اللهُ حَنين التي لم نرتوي من حَنانهَا !! ..

رَحلت كَمَا رَحل ذَاكَ الأبُ الغوراني الذي تَركَ فَوقَ قَبره أكوام من اللحم حيث لا تَعرفَ لونَ الخُبز و لا رَائحته :

ـ هَل أحضَرتَ الخُبز يُمَّة !؟ ..

كَلمة كُنتُ أسمَعها من يُمَّة ، الفَارق بَينَهَا و بَينَ يُمَّة هي الهَياكل الخَارجية ، البَواطن فَذَاتُهَا تُطلقُهَا الأُمهَات لكُل صَاحب خَير :

ـ نَعم يا حجَّة ، أمَانتك جَاهزة ..

تمسكُ الخُبزَ في كَفهَا المُتَشَقَقة ، تَخفضُ رَأسهَا و تَرفعُ كَفهَا عَالياً ، و تَلهَجُ بالدُعَاء كَي تُريحَ تَعبَ قَلبي :

ـ رحمة الله عَليهَا ، رَحمهَا الله ، عَوضَها اللهُ الجَنة ، و أسكنهَا فَسيحَ جنَانه ، و رَزقَكُم الصَبر السلوان ، اصبر يُمَّة و احتَسب فَموعدكُم الجَنة ..

تَهطلُ الدُموع من بثُور القَلب ، تَهبُ الرَياح حَاملة دُعَاء المَرأة الملكومة إلى الأُم الحَنونة ، يسُوقهَا هَبوب النَسيم إلى حوران أرض العَابرين على ملح السنين ، هُنَاك تمتثلُ شَاهدة كُتب عَليهَا :

هُنَا ما وَعد الرَحمن و صَدق المرسَلون ..

هَذا قَبر الشَابة شَهيدة الوَطن :

هيام أحمد السَاري أبازيد ..

تَطرقُ الدَعوات أغلالَ التُراب ، أن افتح الأبواب أيهُا البواب ، يتناثَرُ التُراب فَوقَ المَقام مُرتَجاً لنسَائم الله :

ـ من الطَارق !؟ ..

أنَا الحُب أتَيتُ من أرض الهَاشميين ، أَحملُ أطنَانَ الرَحمة و الحَنين ، ألا هُنَاكَ تُراب رَشيد يُزيل تلكَ البَراكين ، لتلجَ صَدقة الابن اليَتيم !! ..

تَهتزُ ألواح اللحود فَوقَ حَنين ، و يتنَاثَرُ الخَبر بين أَكوام الجُنون ، أنَ أفسحوا من لظَى الضَغط و أهوال الظُلمَات فَقد جَاءنَا رَسول أمين ، من ابن لهَا من دَار الأسفلين :

ـ ممن هَذا النُور يا رَسولَ القبور !؟ ..

إنهُ من عَالم الغَرور أرسَل قَوافلهُ بخُبزه لذَةً للفُقراء والمسَاكين ، إنهَا قَرابين كُل صَباح يا أُمَ البنين ..

تُزيح يُمَة غَبشَ الأكفان من نُورهَا ، لتَنفلقَ الأجفانُ بوهج الرَحمن ، و تَقوم من مَقام البرزخ :

ـ أن مَاذا بَكُم ! ..

تُحاكيهَا أكَياس الخُبز التي تَتَأجَجُ من أَعنتهَا الأبخرة و نَسَائم الوَجد ، تَقفُ أمَامَ نَصَاع هَيبتهَا مُتماسكة الأنفاس :

ـ إنهُ الخُبز يا حَنين ، قُومي من قيامتك يا حنين ، فقد جَاءَ من عَالم الأروح سُقيا جَنين كَانَ يَقولُ لك :

ـ يُمَّة ..

و اليَوم يَقولُ لك يا أغلى الرَاحلين ، و يا أكرم الأكرمين ، قُدسَ سركَ في كُل دَار و أينما تَنزلين !!

تشتَعلُ يُمَّة بهجة كيومِ لقاء بعد سَفر و أنَين ، و لتَنامَ في جَوف الارض كَما يَنامُ كُل قَديس و أمين ..

سَلامٌ عَليك يومَ ولدت ، يَومَ رَحلت ، و يَومَ تُنَاديني يا حَبيبي تَعال لنَدخُل أبواب الجنَان آمنين ..

تُوزعُ أكَياس الخُبز في كُل يَوم على مَرأى النَاظرين ، و في الخَفاء و بعد كُل شَمس أتَت لتُنير ظُلمَة الحَائرين ، تُرفعُ الدَعوات ، و يُؤكلُ الخُبزُ لتَرتَاحَ رُوحي : أن أوصَلت الأمانة ألا هَل بلغت !! ..

أتقاعَسُ يَوماً من الأيام بَسبب حُمَة نَزلت بي ، و لم تُسعفني قَدماي أن أسير إلى مَخبز الحَي لأُريح ذاكَ الطفل الحَي ..

كُنتُ أنَامُ على سَريرهَا مُتبركاً بطُهرهَا ، مُلتَحفاً بعطرهَا ، أدعوا الله أن يَشفيني بجَاههَا ، قد تَدثَرتُ بشَالهَا و تَمسكتُ بالسُبحة التي يتدلى هلالها ، و غَابت الأذهان في حَضرة القدير الدَيان ، لَتحلَ الحَضرة و تَغيب الفكرة و تأتي السكرة ، و تَتَقدمُ حَنين و خَلفهَا جَيشٌ من النُور و السُرور ، اهتزَ القَلبُ فرحاً كَأنهُ نصرٌ على تَسَلط القُبور ..

أسعفني الدَمعُ جَارياً يَصُبُ في جَداول الخَدي صَباً ، ليروي سواقي الشَوق ، فَأقوم كَأنما نَشطتُ من عقال ، و أصيحُ بلهفة الطفل الذي حُرمَ من رُؤية أُمه دَهراً :

ـ يُمَّة !! ..

يتناثر النُور في حَضرة أهل السُرور ، و تَفيض براعم البَهجة لتُرممَ كُل بَلوة :

ـ يا بَعد اليُمَّة !! ..

كَانَ الضياعُ قَد بعثَر قواي ، تُوقفني ألسنة النور على قَدمي التي انهارت في حَضرتهَا ، يُسعفني سُطوع نصَاع أولياء الله ، يُسمعُ من صَوت يُنجدُني و يُقوي شَراييني المُتكلسة بَعد عُسر في الفراق :

ـ ألا إنَ أولياء الله لا خَوفٌ عَليهم و لا هُم يحزنون ..

عَرفتُ بأنَني لستُ من أوليائه ، شَعرتُ بالخَيبة التي رَفعتني إلى منَازل التعَاسة و ألقتني إلى شَهيق الجَزع و التَعاسَة ، و لكنَ النور يَهمسُ في أُذُني :

ـ هَيَا قُم ، فتلكَ الدَارُ نَجعلُهَا للذين لا يُريدونَ عُلواً في الأرض و لا فَسَاداً و العاقبة للمُتَقين ..

أُحَاولُ رُؤيتهَا بَعيداً عن انفلاق الأنوار و بهجة الأسرار و مُكَاشَفة الأَخيار ، أمسَحُ أجفاني لعَلي أقوى على مُشَاهَدة مَا حَلَ بهَا بَعد الفَراق :

ـ هَاظَ أنت يا يُمَّة ! ..

تَقتَربُ إليَّ كَأنما مَداً حَنون فيه بلسماً للباكين ، و أخشَى الاقتراب من ضيائهَا ، أعودُ القَهقرة ، كَأنهُ أتى يَوم الحسَاب :

ـ ليش خَايف يَا بَعد عُمري ! ..

أُحاولُ أن أُلملمُ لُعابي في مَمَرات الحلقوم ، و أستجمعُ عبارات أنسَاني إياهَا الغياب :

ـ أكيد أنت حَقيقة يَا يُمَّة !!

تَجلسُ بجَانبي حَنين ، تَضَعُ كَفهَا على كَتفي تُحاولُ أن تَحتضنني ، فَأقعُ سَاجداً تَحتَ قدميهَا مُقبلاً كُل مَا وَصَلتهُ

شَفتاي ، مُتبركاً بالطَاهرة بنتَ الطَاهرين ، و دُموعي لو رَأيتهَا لقُلتَ بأنَني أشَدُ النَاس نَدماً و أكثَرهم من الباكين :

ـ ارفع راسك يُمَّة .. أنَا عتبان عَليك يا حَبايب !!

يسَقطُ قلبي ، و لم أَكُن يَوماً من المُقَصرين ، و الذي نَفسي بيده لو أنفقتُ كُل أنفاس عُمري في سَبيلهَا لكُنتُ من الشَاكرين :

ـ مَا عَاش يلي بدوا يزَعلك ..

كَانَ الطفلُ في دَاخلي نَائماً ، و لهُ شخير و رَائحة أقوى من الياسمين ، تَفوح منهُ كُلمَا اقتربت حَنين :

ـ يُمَّة الله يسامحك ، هَذا اليوم كُنتُ جَائعاً و لم تُطعمني و لم تَرويني !! ..

تَجمدت الأنفاسُ ، و تَيبست الأطراف ، و تَوقفَ دَوران الشُعاع ، و ثَبتت الحُجة عَلى من لا يَعرفُ الحُجة :

ـ و كَيف بَدي أعرف أنك جيعَانة ! ..

عادت نَواة الضَوء تَطوفُ حَولَ المكان ، تَطرُدُ مَا تَبقى من ظَلام ، و تُسبح بَحمد الرَحيم الرَحمن :

ـ كَانَ الجيَاعُ يَنتَظرونكَ ، لَو أطعمتهُم لشَبعتُ ..

صَمتَ الكَلامُ و تَفَجرت براكين المنام ، و رَحلت أنوار الأَحلام و كُشفت سَتائرُ النيام ، و تَجردتُ منهَا كيوم الفراق ..

و اسَتيقظتُ باكياً شَاكياً هَمي لمن عَيناهُ لا تسَهو و لا تنَام :

ـ أن اغفر يا رب ذنبي ، و استُر مَا تَبقى من كَربي ، و أرح كُلَ مَوجوع ، و أسعد كُل مَفجوع ، و احشرني مع يُمَّة في أمواج الشُموع ، في جَنَات عدن مع النبي صَاحب الكَوثر و الينبوع ..

ـ يُمَّة ..

يا وَجعَ قَلبي و مَسرتي و ضيائي ..

لا أُحبُ النُذور ، فَحُلمي وَاحدٌ في هَذه الحَياة ، أستدلُ به عَليك يَومَ الزحام ، يَوم تَتَعثَرُ الأرواح المُشبعة بالحُب ، أرفعُ يَدك بينَ أهل السَمَاء و الأرض ، و أَصيح بُكل مَواجع العُشَاق :

ـ يا رب هَذه حَبيبتي فَاشَفع لنَا بجَاههَا عندك ، يا من لا تُردُ عندهُ دَعوة ، و لا تَخيبُ عندهُ رَجوة ..

هَذا اليَوم أكتُبُ لهَا تلكَ التي أدعوا بهَا الله ، أن تَأخُذ بقلبي إلى النُور ، و أنَ يُعينَني حُبي لهَا و لرؤياهَا بأن أفتحَ أولَ تَكية يُوزعُ عن رُوحها الخُبز لوَجه الله تَعالى تَحتَ اسم :

هذهِ تكية
أُم اليَتَامى مَولاتي
هيام أَحمد أبازيد
قدسَ اللهُ سرهَا و نَفعَ الله الجياع بهَا ..
حَيثُ سَيوزع الخُبز عن روُحهَا ما دَامت تَسيرُ لهَا الأشواقُ حَاجة إلى بيته العَتيق ، و تَزحفُ لهَا المُهجُ عَاكفة كَخلوة كُلَ صوفي و قديس ..

رَحمَ اللهُ يُمَّة .

أتمَمتُ رواية :

خُذي بقلبي إلى النُور

في بَلَد الحُرية و الديمُقرَاطية : النَمسا ، في عَاصمَة البيانو و الكَمنجَة : فيينا ، مع غَياب يُمَّة و أشواق الحَنَين ..

في مَقهى HORNIG ، في الحي السَابع ..

السَاعة : 00 : 11 ،

من تَاريخ : 4 / أيار / 2018.